أسباب الفتنة بين المسلمين

الدكتور/ عبد السلام بشر محمد سعيد

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية

بجامعة قطر وجامعة الأزهر بالقاهرة

محتويات البحــث

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أكمل الحمد على كل حال، والصلاة والسلام الأَتمَّان على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وسائر النبيين، وآل كلٍ، وسائر الصالحين.

أما بعــد؛؛؛

فإنَّ الفتن التي تقع أحياناً بين بعض المسلمين، في هذا القطر العزيز من أقطار المسلمين، أو ذاك تجعل القلق والحزن يتسلل إلى نفس كل مسلم رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

حيث إنَّ المسلمين الذين هذا وصفهم كالجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

وإنَّ شماتة الأعداء بالمسلمين تجعل الألم يتضاعف على نفس المسلم، إذ يتحقق مرادهم فينا، ولكن بأيدي بعضنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وإنَّ مما يكاد يفقد الإنسان لبه شماتة هؤلاء المحسوبين على الأمَّة الإسلامية، فلا يكادون يتركون مصيبة، أو النازلة تنزل بالمسلمين إلا استبشروا بها،ورفعوا عقيرتهم بالشماتة.

فإذا كانت النازلة فتنة بين بعض المسلمين في قطر من الأقطار شفعوا الشماتة بالهجوم على الإسلام بطريقة أو بأخرى ليوحوا للناس، أو ليقرروا لهم أنَّ الفتنة

الواقعة بين بعض المسلمين راجعة إلى تمسكهم بالإسلام [1]، وذلك في مسعى خبيث لتنفير عامة الناس من التوجه الكامل ناحية شريعة الله تعالى، وليبقوا عليهم أساري التبعية للغرب، والتي هي واحدة من أسوأ ما أصاب المسلمين من محن عبر التاريخ الإسلامي كله .

والإسلام بريء مما يلصقه به هؤلاء المفترون ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف].

ولقد بين لنا الحق سبحانه وتعالى طبيعة النفس البشرية، وكيف أنها تستطيع أن تبلغ الدرجة السامقة في مراقي الكمال والفلاح بتقوى الله ﷻ، وكيف أنها تستطيع أن تتهاوى في دركات النقص والخسران باتباع الهوى.

يقول تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة المائدة، الآيات: ٢٧-٣٠) .

ولقد أرسل الحق سبحانه وتعالى رسله صلوات الله عليهم لإصلاح النفوس، وتنقيتها مما يشوبها من أدران الجاهلية.

ولقد بعث الحق سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد ﷺ بالكتاب المنير، والذي بينه بسنته ﷺ.

(١) قولهم هذا لا يصلح أن يكون شبهة في قلب أحد من العقلاء الذين فقهوا في دين الله ﷻ، بل ينطلي فقط على الأغرار الذين لم يغوصوا في بحار الحقائق، ولم تكتمل قوتهم العلمية النظرية، ولكن الحال يقتضي أن يقوم العقلاء بتبصير هؤلاء في دينهم، وإزالة الغشاوة عن العيون.

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾(سورة الإسراء: آية: ٨٢).

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأخوة الإيمانية هي سمة العلاقة بين المسلمين، وشرع القواعد والأحكام التي تحفظ هذه السمة، وتدرأ عنها ما قد يعتريها بسبب نزغ الشيطان وتحريشه بين بعض الناس.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (سورة النساء،الآيتان: ٥٨، ٥٩).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[1] (سورة الحجرات، الآية: ١٠).

هذا، والفتنة مرض يعتري المجتمع البشري بين الحين والحين بصفة عامة وهي وإن وقعت بين بعض المسلمين فهي والحمد لله رب العالمين مرض مؤقت، وكسر يتكاتف الخيِّرُون لإصلاحه، إلا أنَّها بين طوائف الكافرين والفاسقين مرض مزمن، وإن بدا المظهر الخارجي لامعاً برَّاقاً، فتحت الضلوع داءً دويًّا.

---

(١) إن كل من عنده القدرة على الإصلاح ورأب الصدع الذي قد يقع بين بعض المسلمين، ثم يقف موقف المتفرج متابعاً لأخبار مصائب إخوانه في الدين، كما يتابع أخبار المباريات الرياضية، بل ربما يفوق اهتمامه بتلك المباريات اهتمامه بأمر المسلمين فهؤلاء، ومعهم الشامتون من المحسوبين على الأمة الإسلامية كل هؤلاء آثمون بنص الآية المذكورة وغيرها من الآيات والأحاديث، وإن كان هؤلاء الساكتون عن الحق، والشامتون اليوم في نعمة فإنه يخشى عليهم من زوالها: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٥٣).

فقل للشامتين بنا أفيقوا

سيلقى الشامتون كما لقينا

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة الحشر، من الآية: ١٤) .

وما الحرب العالميتين الأولى والثانية بين الأوربيين النصارى بسبب التنافس الاستعماري واللتان جرَّتا على العالم الدمار والخراب إلاَّ صورة تكشف بجلاء أنَّ الفتن ليست وقفاً على المجتمع الإسلامي.

وكذا ما يدور في أيرلندا الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت .. الخ.

فالحروب الأهلية التي لم تكد تنجوا منها أمة من الأمم وكذا الحروب القبلية والعرقية، هي تقريباً مترادفات للفظ الفتنة.

هذا فضلاً عما اخترعوه من أوصاف للحروب، حتى شاعت الحرب الباردة والحرب الاقتصادية والحرب الاستباقية ... الخ.

هذا، وإنَّني نضالاً عن دين الله المجيد، ونصيحة لجميع المسلمين أقدم هذا البحث، محاولاً بيان أبرز أسباب الفتنة فيما أحسب لتحاشيها، وحماية الأمَّة منها، وكذا رداً لأكاذيب المفترين على الملة السمحاء.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (سورة التوبة ،الآية: ٣٢).

وهذا الهدف النبيل أعني حماية الأمة من الفتنة ورد أكاذيب المفترين على الإسلام والمسلمين جدير أن يدفع كل مصلح أو راغب في الإصلاح إلى السعي والتآزر مع كل مخلص في سبيل الوصول إليه، وبذل أقصى ما يمكن، وأحسن ما يمكن في سبيله، على كافة المستويات والمجالات.

يقول تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾(سورة النساء، الآية: ١١٤) .

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله.

التمهيـــد

تعريـف الفتنـــة

إنَّ مادة (فتن) في لغة العرب، تدل على (ابتلاء واختبار، ومن ذلك الفتنة، يقال فتنت الذهب بالنار: إذا امتحنته) [1].

قال الجوهري: «الفتنة: الامتحان والاختبار، ويُسَمَّى الشيطان: الفتَّان. وافتتن الرجل وفُتن، فهو مفتون إذا صابته فذهب ماله أو عقله، وكذلك إذا اختبر، قال تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) ﴾ [2].

وفتنة المرأة إذا دلَّهته [3] وافتتنته أيضاً.

والفاتن: المضل عن الحق» [4].

«وقال الراغب: أصل الفتن إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته، ويستعمل في إدخال الإنسان في النَّار، ويطلق على العذاب، كقوله تعالى: ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) ﴾ [5] وعلى ما يحصل عنه العذاب، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، المجلد الرابع، ص ٤٧٢، باب: الفاء والتاء وما يثلثها بتصرف .

(٢) سورة طه، من الآية (٤٠).

(٣) (والتدليه: ذهاب العقل من الهوى، يقال: دلهَّه الحب: أي حيره وأدهشه، ودَلِه هو يدله). إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، بدون تاريخ، ج ٦، ص ٢٢٣١، (باب: الهاء، فصل: الدال).

(٤) المرجع السابق، ج ٦، ص ٢١٧٦، باب: النون، فصل: الفاء، بتصرف.

(٥) سورة الذاريات، من الآية (١٤).

لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[1]، وعلى الاختبار كقوله تعالى: ﴿ فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]، وفيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء والشدة أظهر معنى، وأكثر استعمالاً قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ ﴾[4]، أي يوقعونك في بلية وشدة، في صرفك عن العمل بما أوحى إليك .

وقال غيره: أصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت فيما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أطلقت على كل مكروه، أو آيل إليه، كالكفر والإثم والتحريق، والفضيحة، والفجور، وغير ذلك»[5].

هذا، ولفظ الفتنة في كتاب الله تعالى يراد بها الامتحان، الذي لم يفتن صاحبه، بل خلص من الافتتان، ويراد بها الامتحان الذي حصل معه افتتان.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾[6] .

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[7]،وقوله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[8] .

(١) سورة التوبة، من الآية (٤٩) .
(٢) سورة طه، من الآية (٤٠).
(٣) سورة الأنبياء، من الآية (٣٥).
(٤) سورة الإسراء، من الآية (٧٣).
(٥) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري، بشرح صحيح البخاري، مكتبة الكليات الأزهرية، بالقاهرة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج ٢٧، ص ٣.
(٦) سورة طه، من الآية (٤٠).
(٧) سورة البقرة، من الآية (١٩٣).
(٨) سورة التوبة، من الآية (٤٩).

ويطلق على ما تناول الأمرين: كقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[1]، ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[2] أي امتحانك وابتلاؤك، تضل بها من وقع فيها، وتهدي من نجا منها .

وتطلق الفتنة على أعم من ذلك، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾[3].

قال مقاتل: أي بلاء وشغل عن الآخرة، قال ابن عباس: فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى .

وقال الزجاج: أعلمهم الله عز وجل أنَّ الأموال والأولاد مما يفتنون به، وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده، لأنَّه ربما عصى الله بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم، إلَّا من عصمه الله تعالى.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يقولنَّ أحدكم: اللهم إنِّي أعوذ بك من الفتنة، فإنَّه ليس منكم أحد إلاَّ وهو مشتمل على فتنة، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾، فأيُّكم استعاذ، فليستعذ بالله تعالى من مضلَّات الفتن».

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ﴾[4].

(١) سورة العنكبوت، الآيات (١-٣).
(٢) سورة الأعراف، من الآية (١٥٥).
(٣) سورة التغابن، من الآية (١٥).
(٤) سورة الفرقان، من الآية (٢٠).

وهذا عام في جميع الخلق امتحن بعضهم ببعض) [1].

هذا، والذي أعنيه من معنى (الفتنة) في هذا البحث: اضطراب العلاقات بين الناس وفسادها داخل المجتمع، إلى درجة قد تنذر بالاقتتال، وقد يقع الاقتتال بالفعل .

والفتنة بهذا المعنى راجعة إلى المعاني السابقة فهي امتحان وابتلاء، وفيها الضلال والإثم والعذاب والعياذ بالله ﷻ والمعصوم من عصمه الله تعالى. ويقرب من هذا المعنى قول الإمام ابن حجر العسقلاني: «إنَّ الفتن غالباً إنَّما تنشأ عن التبديل والإحداث» [2].

---

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، دار الحديث، بالقاهرة، ١٩٩١م، ص ٥٢٩، ٥٣٠.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ج ٢٧، ص٣. وسيأتي فيما يلي إن شاء الله تفصيل حول أسباب الفتنة.

المبحث الأول

التنافس على الدنيا مع إهمال ضوابط الشريعة

فطر الله سبحانه وتعالى النَّاس فطرة يتأهلون بها لعمارة الكون، وزودهم بالملكات والقدرات والغرائز التي يتأهلون بها لذلك .

كما فطرهم فطرة يتأهلون بها لقبول الحق الذي جاء من عند الله على ألسنة رسله صلوات الله عليهم أجمعين لتنضبط حركة الإنسان في الكون فلا يضل ولا يشقى. والإنسان إذا لم يضبط ملكاته وقدراته وغرائزه بمعيار الشريعة كان عرضة للانحراف إلى جانب الإفراط أو التفريط (وكلا طرفي قصد الأمور ذميم) .

فتجد هذا الإنسان الذي أهمل ضوابط الشريعة مثلاً يميل إلى جانب البطالة والانسحاب من معترك الحياة، ينتظر ما يساق إليه من الفتات، وربما ظن أن التوكل ينافي الاكتساب [1]، وأنَّ تواكله هذا من قبيل الزهد [2] الذي دعت إليه الشريعة.

(١) (قد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب، وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة، فلا حاجة إلى الأسباب!

وهذا فاسد فإن الاكتساب منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام.

وقد كان النبي ﷺ أفضل المتوكلين، ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الفرقان، من الآية: ٧). ولهذا نجد كثيراً ممن يرى أن الاكتساب ينافي التوكل: يُرزقون على يد من يعطيهم إما صدقة، وإما هدية) القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ج٢، ص ٣٥١، ٣٥٢.

(٢) (الزهد في كل ما يمكن الاستغناء عنه من متاع الدنيا، إلا ما استثناه الشرع الحنيف بالحث عليه والندب إليه كالنكاح. والزهد من الشيء خلو القلب من التعلق به مع الرغبة عنه والفراغ منه، ولا يشترط خلو اليد منه، ولا انقطاع الملك عنه: فإن سيد المرسلين، وقدوة الزاهدين: مات عن فدك، والعوالي، ونصف وادي القرى، وسهامه في خيبر، وملك سليمان الأرض كلها، وكان شغلهما بالله مانعاً لهما من التعلق بكل ما ملكا) الإمام/ أبي محمد عز الدين بن عبد السلام السلمي، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج ١، ص ١٩٠ .

أو تراه أعني هذا الذي أهمل الضوابط الشرعية للسلوك وقد أقبل على متاع الدنيا وحطامها، وكأنه ذئب شراسة وافتراساً، لا يبالي في سبيل الاستحواذ على متاعها بحلال أو حرام، ولا يبالي بضوابط الشريعة، التي تحقق العدالة والإنصاف .

فتراه حريصاً منهمكاً في جمعها، بخيلاً شحيحاً بها.

فإذا كثر هذا النوع من البشر في المجتمع كان وجودهم سبباً للنزاع والفتن .

أخرج مسلم بسنده في صحيحه، عن جابر بن عبد الله، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح [1] فإنَّ الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» [2].

هذا، وإن"أخذ الدنيا لأن تكون لآخرة فليس بدنيا» [أي التي ورد ذمها]، الإمام/ أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي، بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط/ الثالثة، بدون تاريخ، ج٢، ص ٢٣٤ .

(١) قال النووي: (قال جماعة: الشح أشد البخل، وأبلغ في المنع من البخل، وقيل: هو البخل مع الحرص، وقيل: البخل في أفراد الأمور، والشح بالمال والمعروف .

وقيل: الشح: الحرص على ما ليس عنده، والبخل: بما عنده) محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، دار القمل، بيروت، ط/ الأولى، بدون تاريخ، ج ١٦، ص ٣٧٠.

هذا، وفي الحديث: "برئ من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة " أخرجه هناد في الزهد، وابن أبي يعلى في مسنده، والطبراني في الكبير، عن خالد بن زيد بن حارثة، ذكر ذلك السيوطي في الجامع الصغير، ورمز له بالحسن.

الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، للسيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، بشرح فيض القدير، للمناوي، ج ٣٠، ص ١٩٨، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ .

قال المناوي: (.. "برئ من الشح " الذي هو أشد البخل "من أدى الزكاة" الواجبة إلى مستحقيها "وقرى الضيف " إذا نزل به "وأعطى في النائبة " أي أعان الإنسان على ما ينوبه: أي ينزل به من المهمات والحوادث) العلامة محمد المشتهر بعبد الرءوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، للسيوطي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج ٣ ص ١٩٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، بدون تاريخ، ج ١٦، ص ٣٧١، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم .

هذا، والمتأمل في طبيعة الإنسان ونوازعه يدرك مدى الخطورة التي يشكلها الإنسان على نفسه وعلى المجتمع إذا لم تكبح رغباته ضوابط الشريعة، وإذا لم يتسامى الإنسان بنوازعه التي تدفعه ناحية السيطرة على الدنيا وشهواتها.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [1].

هذا ويصور علماء الاجتماع السياسي حالة الإنسان، وهو في الحقيقة تصوير للإنسان عندما لا تكبح رغباته ضوابط الشريعة، ولا يتهذب بأخلاقها .

فيقول بعضهم: «إنَّ مطلب القوة من الناحية النفسية وعبر التاريخ يمثل دافعاً داخلياً للإنسان، فالقوة تكمن في الرغبة في حفظ الذات.

و (الأنا) عند الإنسان لا يتطلب مجرد المحافظة عليه،ولكنَّه يريد أيضاً أن يحقق ذاته عن طريق التأثير والسيطرة على الآخرين، وبذلك يشبه النزوع للمكانة الآمرة Command Status، والاحترام واعتراف الآخرين» [2].

«ويؤكد (هبز) هذا المعنى في قوله: في المقام الأول أضع صورة ميل أو نزوع عامة يعم البشرية؛ رغبة دائمة وقلقة في اجتياز القوة بعد القوة، على نحو لا ينقطع إلا

---

(١) سورة آل عمران، الآيات (١٤-١٧).

(٢) د/ إسماعيل على سعد، المدخل إلى علم الاجتماع السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، ط/ الأولى، ١٩٨٩م، ص ١٩٧ بتصرف، والنص مترجم عن: V.P. Varma، Political، New Delhi، P. 410

عند الموت .. لأنَّ الإنسان لا يستطيع التأكد من القوة والموارد اللازمة ليعيش عيشاً حسناً دون اختيار المزيد. (انتهى).

والتاريخ الإنساني كله مصداق لهذا النزوع بشكل أو بآخر»[1].

هذا، ولقد صور الرسول ﷺ حالة الإنسان إذا ترك نفسه هملاً، ولم ينضبط بضوابط الشريعة أصلاً، وكذلك الذي يغفل عن تلك الضوابط ولم يبادر إلى التوبة والاستقامة.

وذلك في الحديث الذي أخرجه الترمذي بسنده في السنن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له ثانياً، ولا يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[2].

هذا، والحسد، والتدابر،والتباغض[3]بل والاقتتال دركات ينحدر إليها أو إلى بعضها المتنافسون على زهرة الدنيا وزينتها، الأشحة بها، وهو ما حذر منه النبي ﷺ وقد وقع كما بين النبي ﷺ فنشاهد ونسمع عن حوادث وفتن، كان الشح بالدنيا والتنافس عليها من أبرز بواعثها.

وقد أخرج مسلم بسنده في صحيحه، عن عمرو بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[4] .

(١) د/ إسماعيل على سعد، المدخل إلى علم الاجتماع السياسي، المرجع السابق، ص ١٩٨.

(٢) سنن الترمذي، للإمام/ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيُ: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الكفر، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، أبواب: الزهد، باب: ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال.

(٣) (أما الحسد: فهو تمني زوال النعمة عن صاحبها. والتدابر: التقاطع، وقد بقي مع التدابر شيء من المودة، أو لا يكون مودة ولا بغض. وأما التباغض: فهو بعد هذا) الإمام/ محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، مرجع سابقن ج ١٨، ص ٣٠٨.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ج ١٨، ص ٣٠٧، كتاب: الزهد والرقائق، أوائل الكتاب.

وإنَّه لمن أشد ما يؤسف له ما يؤدي إليه التنافس المذموم على الدنيا من ظاهرة الفجور في الخصومات، حتى إنَّ البعض ليقذف البعض الآخر بأشنع التهم، وهو يعلم أنَّه كاذب في قذفه واتهامه، وإنَّما لعدم الورع يجترئ بعضهم على أعراض بعض ومن ثمَّ على الدماء المعصومة، والعياذ بالله ﷻ.

وهذه ظاهرة أعني: الفجور في الخصومات يتنافى مع الخلق الإسلامي القويم، والشرع الحنيف، وتفتح أبواب الفتنة على الناس.

هذا، وقد أخرج البخاري بسنده في صحيحه عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً، أو كانت فيه خصلة من أربعة كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[١].

نسأل الله العافية والسلامة ..

(١) صحيح البخاري، طبعة استانبول (ضمن مجموعة الكتب الستة)، ج ٣، ص ١٠١، كتاب: المظالم، باب: إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه .

المبحث الثاني

الجهل والرؤوس الجهال من أسباب الفتنة

إنَّ الجهل بالدين عمىً للقلوب يصدر عنه هزيل الرأي، وقبيح الفعال، فإذا بصاحبه يفسد من حيث أراد الإصلاح، ويخرب من حيث أراد الإعمار، ويضر من حيث أراد النفع .

ولقد حضَّ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة على طلب العلم، والتفقه في الدين، لما في ذلك من إحياء للقلوب، وإصلاح للفرد والجماعة، وحمايتها من البدع والفتن .

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[١].

«فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفاً وجلاء[٢] ونبلًا .

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[٣] .

قال ابن عباس: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

وقال ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨).
(٢) هكذا في الأصل، ولعلها (جلالًا).
(٣) سورة المجادلة، من الآية (١١) .
(٤) سورة الزمر، من الآية (٩).

غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿٤٠﴾ ﴾[3] تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم.

وقوله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[4] بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴿٨٣﴾ ﴾[5] فرد سبحانه حكمه في الوقائع إلى استنباطهم، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله.

وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾[7].

وقال ﷻ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴿٤٩﴾ ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾[9] وإنما ذُكر في معرض الامتنان)[10].

---

(١) سورة فاطر، من الآية (٢٨).
(٢) سورة الرعد، من الآية الأخيرة، رقم (٤٣).
(٣) سورة النمل، من الآية (٤٠).
(٤) سورة القصص، من الآية (٨٠).
(٥) سورة النساء، من الآية (٨٣).
(٦) سورة الأعراف، من الآية (٥٢).
(٧) سورة الأعراف، من الآية (٧).
(٨) سورة العنكبوت، من الآية (٤٩).
(٩) سورة الرحمن، الآيتان (٣، ٤).
(١٠) أبو حامد محمد بن محمد الغزالين إحياء علوم الدين، دار إحياء الكتب العربية، بالقاهرة، مصر، ج١، ص ٥، ٦ بتصرف .

هذا، وقد أخرج البخاري بسنده في صحيحه عن معاوية ﷺ يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» [(١)].

وأخرج البخاري بسنده في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» [(٢)].

وكل هذا يحض على الإقبال على تعلم العلم والفقه في الدين، ولاشك أنَّ ذلك مؤدٍ إلى وجود فئة من العلماء والفقهاء الذين يتصدون لتعليم العلم، وتبصير الناس بأمور الدين.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [(٣)]. فقد فرض الحق سبحانه وتعالى على العلماء أن ينذروا قومهم، ويبينوا لهم معالم الحلال والحرام، وأن يدعوا إلى الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة، مثلما كان يفعل رسول الله ﷺ إذ «أنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر» [(٤)].

وأخرج الترمذي بسنده في السنن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» [(٥)].

---

(١) صحيح البخاري، بحاشية السندي، دار إحياء الكتب العربية، بالقاهرة، بدون تاريخ، ج١، ص ٢٣، ٢٤، كتاب: العلم، باب: من يرد الله خيراً يفقهه في الدين.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص ٢٤، ٢٥، كتاب: العلم، باب: الاعتباط في العلم.
(٣) سورة التوبة، الآية (١٢٢).
(٤) أورده البخاري ضمن ترجمة (باب: العلم قبل العلم)، من كتاب: العلم، في صحيحه، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٣.
(٥) صحيح الترمذي بشرح عارضة الأحوذي، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ج ١٠، ص ١١٨.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾[2].

هذا، وكما أمر الحق سبحانه وتعالى العلماء أن يعلموا العلم ولا يكتمونه، أمر سائر الناس أن يتعلموا ما يلزمهم من أمور الدين، وأن يسألوا أهل العلم فيما لا يعلمونه من أمور الدين، إذ أنَّهم لو تركوا التلقي من أهل العلم، سواء أتركوا السؤال على الإطلاق، أو سألوا من ليس عنده علم،لزمتهم تبعة مخالفة قوله تعالى: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[3].

يقول الإمام شهاب الدين القرافي: «ولا يجوز لأحد الاستفتاء إلا إذا غلب على ظنه أنَّ الذي يفتيه من أهل العلم والدين والورع.

ومدرك العامي في أنَّ الذي يستفتيه من أهل العلم والدين والورع: الأخبار وقرائن الأحوال، فذلك عند العامة متيسر، وأمَّا إذا لم يتضح له ذلك فلا يحل له الاستفتاء، لأنَّ دين الله لا يؤخذ عن غير أهله، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان (١٥٩، ١٦٠).
(٢) سورة البقرة، الآيتان (١٧٤، ١٧٥).
(٣) سورة النحل، من الآية (٤٣).
(٤) سورة الزمر، من الآية (٩).

وقد قال الله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فتعيين أهل الذكر بالنطق يقتضي بالمفهوم تحريم سؤال غيرهم» [(١)].

ويقول الإمام أبو المظفر الإسفراييني: «إنَّ من كان من أهل التقليد في أحكام الشريعة فإنَّه يجب عليه السؤال، ولا يجوز له أن يسأل كل أحد، إذ لو جاز ذلك: لجاز أن يعمل من ذات نفسه، إذ لا فرق بين شخص وشخص، إذا لم يعتبر فيه صفات المجتهدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

فثبت بهذا أنَّ على العامي ضرباً من الاجتهاد، حتى يميز بين من يكون أهلاً لمعرفة ما يسأل عنه، وبين من لا يكون أهلاً له.

ويحصل له المعرفة بطول الدراية والتسامع» [(٢)].

ويقول الإمام الشاطبي في الاعتصام: «إنَّ جعل الجاهل في موضع العالم، حتى يصير مفتياً في الدين، ومعمولاً بقوله في الأموال والدماء والأبضاع وغيرها محرم في الدين» [(٣)].

ويقول الإمام الشافعي حول هؤلاء المتهجمين على القول في الدين بغير علم: «ومن تكلَّف ما جهل وما لم تثبت معرفته، كانت موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة، والله أعلم. وكان بخطئه غير معذور، إذا نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه» [(٤)].

(١) الإمام/ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، حققه: طه عبد الرءوف سعد، ط/ الأولى، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣من دار الفكر، بيروت، ومكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، ص ٤٤٢، ٤٤٣.
(٢) الإمام/ أبو المظفر الإسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، ط/ الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٨١، ١٨٢ بتصرف.
(٣) الإمام/ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، بدون تاريخ، ج٢، ص ٨١.
(٤) الإمام/ محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ط/ الأولى، ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠، ص ٥٣.

هذا، وإنَّ فقد العلماء الورعين، أو إعراض الناس عنهم لمن أعظم المصائب التي تتهدد أساس وجود هذه الأمة وتماسكها، ويفتح باب الفتنة والخلل والاضطراب على مصراعيها، بعدما تصير الفتوى في الأموال والدماء والأبضاع وغيرها إلى الجهال.

أخرج البخاري ومسلم بسنده في صحيحيهما واللفظ لمسلم، عن عبد الله بن عمرو» قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعاً، ولكن يقبض العلماء، فيرفع العلم معهم،ويبقى في الناس رؤوساً جهالاً،يفتونهم بغير علم،فيضلون ويضلون» [1].

وأنَّى للجاهل وقد جعل نفسه، أو جعله أمثاله وأشباهه مفتياً في الدين،»معمولاً بقوله في الأموال والدماء والأبضاع وغيرها» من غير أن يكون لذلك أهلاً، أنَّى له أن يدرك أو أن يعمل بمقتضى التوجيهات الإسلامية في الفتوى والتعليم، والدعوة إلى الله ﷻ، من نوع التوجيه التالي:

أخرج البخاري بسنده في صحيحه عن أبي الطفيل، عن علي ؓ قال: «حدثوا الناس بما يعرفون: أتحبون أن يكذب الله ورسوله» [2].

قال ابن حجر: «والمراد بقوله «بما يعرفون» أي يفهمون، وزاد آدم ابن إياس في كتاب (العلم) له، عن عبد الله بن داود، عن معروف، في آخره «ودعوا ما ينكرون» أي ما يشتبه عليهم فهمه، وكذا رواه أبو نعيم في المستخرج.

وفيه دليل على أنَّ المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة .

(١) صحيح البخاري بحاشية السندي، مرجع سابق، ج ٤،ص ٢٦٢، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة (باب: ما يذكره من ذم الرأي وتكلف القياس)، وصحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها بالقاهرة، بدون تاريخ، ج ١٦، ص ٢٢٤، ٢٢٥، كتاب: العلم، (باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان).

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، مكتبة الكليات الأزهرية، بالقاهرة، مصر،١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج١، ص ٣٣٧، كتاب: العلم (باب: من خص قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا).

ومثله قول ابن مسعود: «ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلاَّ كان لبعضهم فتنة» رواه مسلم.

وعن الحسن: أنَّه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين [1] لأنَّه اتخذه وسيلة إلى ما كان يعتمده في المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي .

وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب، والله أعلم» [2].

هذا احتياط العلماء، من مجرد ذكر القول الذي قد يستغله الظلمة وأصحاب الهوى، لكنَّ الرؤوس الجهال عميان يقودون عميان. وكيف عندما يذهب هؤلاء في الآيات والأحاديث مذاهب غير مقصودة، ووجوهاً غير مرادة، يسفك بها الدم المعصوم، ويهتك بها العرض، وتستباح بها الأموال الحرام.

إذا خلت ساحة قوم من العلماء الراسخين الأبرار، أو خفت صوتهم وسط ضجيج أهل الباطل برز على الساحة الأدعياء، ممن تعاطي نتفاً من العلم، فجعلها مصيدة للحطام، ووسيلة للاستتباع والتقدم عند العوام فهو متصنع مداهن، همته فيما يعرض له من العاجل، من النهمة متى ينالها؟ لبعد قلبه عن الآخرة.

مترصد للتوثب على الدنيا لينالها، وليظفر بها، منتهزاً لفرصتها، يتحلى بظاهر الإيمان ليطارد به الدنيا، وصير معالم الإيمان شبكة لحطامها وأوساخها، يظهر التماوت ليحظى عند أهل الدنيا، فينال من عزها وجاهها، ويتحازن عند لقاء الخلق، ويتنفس الصعداء، يظهر الاهتمام لدينه والتحسر على إدبار أمره، وأسفه-في الحقيقة-على ما يفوته من الدنيا .

(١) (وهما الرجلان اللذان قتلا راعي إبل صدقة المسلمين، وفرَّا بهما فنكل بهما الرسول ﷺ ثم قتلهما).

(٢) الإمام/ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ج١، ص٣٣٨.

ويمتنع من قبول النزر اليسير من الدنيا ليكون في هيئة الزاهدين، ولئلا ينكسر جاهه عند الخلق، ويصير عندهم في صورة الراغبين، ومع ذلك قد هيأ على كل باب من منالات الدنيا باباً من أبواب الدين ليختله من أيديهم.

يظهر الزهد لتمال عليه الدنيا.

ويظهر العبادة لتكفي مؤنه.

ويظهر الورع ليؤتمن على الأموال .

ويظهر الانقباض ليهاب .

ويظهر الشر على أهل الريب ليشار إليه بالأصابع.

ويطلب الرياسة ليحكم في الخلق في معاملته بحكم الملوك .

ويطلب العز لنفاذ مشيئاته فيهم» [(١)].

فبمثل هذا، وأشباهه، تنشأ بذور الفتنة في المجتمع وتنمو وتترعرع، فتجد الفتاوى التي مرجعها الهوى، وقد قسمت الناس إلى شيع وأحزاب فهذا الفريق من الناس يرمي الفريق الآخر بالجمود وغير ذلك من الشنائع وهو يحمل في شماله فتوى، والفريق الآخر يرمي أولئك بالكفر والفسق وهو يحمل في شماله أيضاً فتوى.

هذا،وقد أخرج مسلم بسنده في صحيحه عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً» [(٢)] .

---

(١) محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط/ الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، المجلد الثالث، ص ٣٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، بدون تاريخ، ج١٦، ص ٤٦١، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون.

قال النووي: (قوله ﷺ «هلك المتنطعون» أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم) [١].

هذا، وعندما تنشأ الخصومات بين الرؤوس الجهال ويقع التعصب: تتهيأ الأجواء للفتنة على نحو ما،فيبتلى الناس بهم، بينما لا يبالي هؤلاء الجهال أو الرؤوس الجهال إلا بالانتصار لأنفسهم ولأهوائها، وقد صُمت آذانهم عن مثل قوله ﷺ: «من جادل في خصومة بغير علم: لم يزل في سخط الله حتى ينزع» [٢].

قال العلامة المناوي: ".. «من جادل في خصومة»: أي استعمل المراء [٣] والتعصب «بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع» أي يترك ويتوب منه توبة صحيحة .

وأخذ الذهبي وغيره منه "أنَّ الجدال بغير علم من الكبائر" [٤].

وتجد أهل العلم ومن معهم حيارى في تفهيم هؤلاء وأولئك، بل كل فريق يتصيد من أقوال أهل العلم ما يظن أنَّه يساعده على ما يهوى، فإذا نصحهم أهل العلم وبينوا لهم وجه الحق ناصبوهم العداء، وتطاول الأدعياء على العلماء المخلصين بفحش القول، مما حمل البعض منهم على تحاشيهم، ومن ثمَّ تشتد الظلمة وتتهيأ أجواء الفتنة.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، دار القلم، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج ١٦، ص ٤٦١.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم العيبة، عن أبي هريرة ورمز له السيوطي بالصحة، الجامع الصغير، للسيوطي بشرح فيض القدير، للمناوي، مرجع سابق، ج٦، ص ١١١.
(٣) (قال الغزالي: "والمراء طعن في كلام لإظهار خلل فيه" .

والجدال: عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها .

والخصومة: لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود، وذلك يكون ابتداء، ويكون اعتراضاً، والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق). عبد الرءوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، مرجع سابق، ج ٦، ص ١١١.
(٤) المرجع السابق، ج ٦، ص ١١١.

وصار حال هؤلاء الأدعياء أو الرؤوس الجهال، كحال من قال فيه القائل:

يتقـــــي النــــاس فحــــــشه وأذاه

مـثـل مـــا يتقـــــون بـــول الحـــمار

لا تغـــــرنك ســـــجدة بين عـــينيه

حـــذاري مـــنها ومـــنها فــــراري [1]

هذا، وقد أخرج الترمذي بسنده في السنن عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله ﷻ: أبي يغترون، أم عليَّ يجترئون فبي حلفت لأبعثنَّ على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيراناً» [2].

وأخرج أيضاً بسنده في السنن، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى قال: لقد خلقت خلقاً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، فبي حلفت لأمنحنهم فتنة تدع الحليم منهم حيراناً، فبي يغترون، أم عليَّ يجترون» [3].

نعوذ بالله من عدم التوفيق لحسن العمل، ونستعين به على تطهير ضمائرنا من حب الدنيا، ونسأله علماً نافعاً، وعملاً متقبلاً.

ونعوذ بالله من رأي يكون ضلالاً، ومن عمل يصير حسرة ووبالاً، ونعوذ بالله من نية تعقب وزراً، ونعوذ بالله من عزيمة تجلب شراً.

---

(١) المعارف، لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم، ط/ الرابعة، دار المعارف بمصر، ١٩٨١م، ص ٢٣٧.

(٢) صحيح الترمذي (سنن الترمذي) بشرح عارضة الحوذي، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ج ٩، ص ٢٤٦، ٢٤٧، كتاب: الزهد، باب: حدثنا سويد .. وذكر الحديث.

(٣) المرجع السابق، ج ٩، ص ٢٤٧، نفس الكتاب والباب.

المبحث الثالث

من أسباب الفتنة: العصبية وحمية الجاهلية

إنَّ أحد أسباب اشتعال الفتنة وتحول اختلافٍ لا يمكن تداركه إلى فتنة واقتتال: تلك العصبية وحمية الجاهلية، التي تجعل المرء يرى باطل قومه حقاً، ويركب الصعب والذلول في سبيل نصرتهم، مهما أوغلوا في الباطل.

وإنَّ مما ابتلى به المجتمع البشري عامة، والمجتمع الإسلامي في بعض حقبه، هؤلاء الذين يجعلون في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، ويرفعون رايات العصبية القبلية، أو الحزبية، أو الشعوبية، أو العصبية الإقليمية، أو غيرها من رايات العصبية المقيتة التي تجعل المرء يرى باطل قبيلته أو حزبه أو شعبه أو بلده حقاً، بينما يرى الحق إذا كان مع الآخرين باطلاً إذا هم اختلفوا مع قبيلته أو حزبه ... الخ، وربما ولو لم يختلفوا، وذلك بما يتنافى مع الشرع القويم، والعقل السليم، ويؤجج نيران العداوة والبغضاء،وقد يجر إلى الاقتتال والعياذ بالله عَزَّ وَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥ ﴾[1].

قال الإمام الفخر الرازي: (القوّام: مبالغة من قائم، والقسط: العدل .

فهذا أمر منه تعالى لجميع المكلفين بأن يكونوا مبالغين في اختيار العدل، والاحتراز عن الجور والميل.

---

(١) سورة النساء، الآية (١٣٥).

وقوله: ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [1] أي تقيمون شهاداتكم لوجه الله كما أمرتم بإقامتها [2]، ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم .

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ ﴾ [3] والمعنى: اتركوا متابعة الهوى، حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل. وتحقيق الكلام أنَّ العدل عبارة عن ترك متابعة الهوى، ومن ترك أحد النقيضين فقد حصل له الآخر، فتقدير الآية: فلا تتبعوا الهوى لأجل أن تعدلوا، يعني: اتركوا متابعة الهوى لأجل أن تعدلوا.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [4]فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون بمعنى الدفع والإعراض، من قولهم: لواه حقه إذا مطله ودفعه.

الثاني: أن يكون بمعنى التحريف والتبديل، من قولهم: لوي الشيء، إذا فتله، ومنه يقال: التوى هذا الأمر، إذا تعقد وتعسر تشبيهاً بالشيء المنفتل.

وأمَّا قوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥ ﴾ [5] فهو تهديد ووعيد للمذنبين، ووعد بالإحسان للمطيعين) [6].

---

(١) سورة النساء، الآية (١٣٥).
(٢) قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ ﴾ (سورة الطلاق: من الآية: ٢).
(٣) سورة النساء، الآية (١٣٥).
(٤) سورة النساء، الآية (١٣٥).
(٥) سورة النساء، الآية (١٣٥).
(٦) تفسير الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، ط/ الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١١، ص ٧٤، ٧٥ بتصرف.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [1].

«قال عطاء: يقول لا تحاب في شهادتك أهل ودِّك وقرابتك، ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك.

يقول الإمام الفخر الرازي: ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ أي لا يحملنَّكم بغض قوم على ألاَّ تعدلوا، وأراد: ألاَّ تعدلوا فيهم، لكنَّه حذف للعلم .

وفي الآية قولان:

الأول: أنَّها عامَّة، والمعنى: لا يحملنَّكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم وإن أساءوا إليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم، فهذا خطاب عام، ومعناه: أمر الله جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحداً إلا على سبيل العدل والإنصاف، وترك الميل والظلم والاعتساف.

والثاني: أنَّها مختصة بالكفار، فإنَّها نزلت في قريش لما صدُّوا المسلمين عن المسجد الحرام.

وفيه تنبيه عظيم على وجوب العدل مع الكفار، الذين هم أعداء الله تعالى، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه» [2] .

هذا، وقد أخرج مسلم بسنده في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قـــال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية .

---

(١) سورة المائدة، الآية (٨).

(٢) تفسير الفخر الرازي، المرجع السابق، ج ١١، ص ١٨٤، ١٨٥ بتصرف.

ومن قاتل تحت راية عُمِّيَّة [1]، يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، فقتل، فقتلة جاهلية .

ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه» [2] .

هذا، و«الراية العمية»: «هي الأمر الأعمى الذي لا يستبين وجهه، كذا قال أحمد بن حنبل والجمهور .

قال إسحاق ابن راهويه: «هذا كتقاتل القوم للعصبية» [3] .

وقد أخرج مسلم بسنده في صحيحه عن جابر قال: اقتتل غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادي المهاجر أو المهاجرون: يا للمهاجرين، ونادي الأنصاري: يا للأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟! دعوى أهل الجاهلية؟!» قالوا: لا يا رسول الله إلا أنَّ غلامين اقتتلا فكسع [4] أحدهما الآخر.

قال: «فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً [5]، إن كان ظالماً فينهه، وإن كان مظلوماً فينصره» [6].

---

(١) قال النووي: (.."عمية» هي بضم العين وكسرها: لغتان مشهورتان، والميم مكسورة مشددة، والياء مشددة أيضاً) شرح النووي، على صحيح مسلم، ج ١٢، ص ٢٣٨ .

(٢) الإمام أبو الحسيني مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، المجلد الثالث، ص ١٤٧٦، ١٤٧٧، كتاب: الأمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال.

(٣) المرجع السابق، ج ١٢، ص ٢٣٨.

(٤) كسع: أي ضرب.

(٥) وأخرجه البخاري بسنده في صحيحه عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " قالوا: يا رسول الله: هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: "تأخذ فوق يديه " صحيح البخاري، طبعة استانبول، مرجع سابق، ج ٣، ص ٩٨، كتاب: المظالم، باب: أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي، دار القمل، بيروت، مرجع سابق، ج ١٦، ص ٣٧٤، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً.

وأخرج مسلم أيضاً بسنده في صحيحه عن جابر بن عبد الله يقول: كنَّا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟! قالوا يا رسول الله: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دعوها فإنَّها منتنة» [(١)].

قال النووي: (قوله: «اقتتل غلامان» أي تضاربا. وقوله: «فنادي المهاجر: يا للمهاجرين، ونادي الأنصاري: يا للأنصار»: اللام مفتوحة، وهي لام الاستغاثة ومعناه: أدعو المهاجرين وأستغيث بهم. وأما تسميته ﷺ ذلك: «دعوى الجاهلية»: فهي كراهة منه لذلك، فإنَّه مما كانت عليه الجاهلية من التعاضد بالقبائل في أمور الدنيا ومتعلقاتها .

وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، وفصل القضايا بالأحكام الشرعية، فإذا اعتدى إنسان على آخر حكم القاضي بينهما، وألزمه مقتضى عدوانه، كما تقرر من قواعد الإسلام» [(٢)] أيًّا كان الذي كان منه العدوان.

«لأنَّ الحدود والحقوق يستوي فيها الشريف والمشروف، والوالي والمعزول، وقد أعطى رسول الله ﷺ القصاص من نفسه، وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده، ولأنَّ أولى الناس بإعطاء الحق من نفسه من يتولَّى أخذ الحقوق لغيره، لقول الله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ... ﴾ [(٣)] ...» [(٤)].

---

(١) المرجع السابق، ج ١٦، ص ٣٧٤، ٣٧٥، نفس الكتاب والباب.
(٢) شرح النووي، على صحيح مسلم، دار القلم، بيروت، مرجع سابق، ج١٦، ص ٢٧٣، ٢٧٤ بتصرف.
(٣) سورة البقرة، من الآية (٤٤) .
(٤) الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الحاوي الكبير، تحقيق: د/ محمود سطوحي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج١٦، ص ٣٤٠.

أو يصبر صاحب الحق ويعفو ابتغاء مرضاة الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣ ﴾ [(٣)].

هذا، وقد نهى الحق سبحانه وتعالى عن نصرة أصحاب الباطل، ومجاراتهم على باطلهم، فضلاً عن نصرتهم بالقتال من باب أولى، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ ﴾ [(٤)].

«والاختيان كالخيانة، يقال: خانه واختانه.

وإنّما قال تعالى﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ ﴾لأنَّ من أقدم على المعصية فقد حرم نفسه الثواب، وأوصلها إلى العقاب، فكان ذلك منه خيانة مع نفسه، ولهذا المعنى: يقال لمن ظلم غيره، إنَّه ظلم نفسه.

واعلم أنَّ في الآية تهديداً شديداً [(٥)] لمن جادل عنهم فكيف حال من يعلم من الظالم كونه ظالماً ثم يعينه على ذلك الظلم، بل يحمله عليه ويرغبه فيه أشد الترغيب» [(٦)].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان (١٣٣، ١٣٤).
(٢) سورة الشورى، الآية (٤٠).
(٣) سورة الشورى، الآية (٤٣).
(٤) سورة النساء، الآية (١٠٧).
(٥) (ثبت في الرواية: أن قوم طعمة [الذي سرق درعاً] لما التمسوا من الرسول ﷺ أن يذب عن طعمة، وأن يلحق السرقة باليهودي، توقف وانتظر الوحي، فنزلت هذه الآية، وكان الغرض من هذا النهي تنبيه النبي ﷺ على أن طعمة كذاب، وأن اليهودي برئ عن ذلك الجرم) تفسير الفخر الرازي، مرجع سابق، ج ١١، ص ٣٤.
(٦) المرجع السابق، ج ١١، ص ٣٥ بتصرف.

وقال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ ﴾ [١]

«هذا خطاب مع قوم من المؤمنين، كانوا يذبون عن طعمة-السارق-وعن قومه، بسبب أنَّهم كانوا في الظاهر من المسلمين .

والمعنى: هبوا أنَّكم خاصمتم عن طعمة وقومه في الدنيا، فمن الذين يخاصمون عنهم في الآخرة، إذا أخذهم الله بعذابه.

وقوله﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع .

ثم قال تعالى: ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾، فقوله: ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ عطف على استفهامهم السابق .

والوكيل: هو الذي وكل إليه الأمر، في الحفظ والحماية، والمعنى: من الذي يكون محافظاً ومحامياً لهم من عذاب الله؟» [٢].

وقد قال ﷺ: «من أعان على خصومة بظلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع»[٣] .

قال العلامة المناوي: «... «من أعان على خصومة بظلم» لفظ الحاكم «بغير حق»، «لم يزل في سخط الله»: أي غضبه الشديد، «حتى ينزع»: أي يقلع عما هو عليه من الإعانة.

وهذا وعيد شديد يفيد أن ذا كبيرة، ولذلك عده الذهبي من الكبائر» [٤].

(١) سورة النساء، الآية (١٠٩).
(٢) تفسير الفخر الرازي، مرجع سابق، ج ١١، ص ٣٧ بتصرف.
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر، ورمز له السيوطي بالصحة، انظر: الجامع الصغير، للسيوطي، مرجع سابق، ج ٦، ص ٧٢.
(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، مرجع سابق، ج ٦، ص ٧٢.

الأخذ على يد مثيري العصبيــة:

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف بسنده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: جاء رجل إلى كعب بن عجرة، فجعل يذكر عبد الله بن أبي-رأس المنافقين-وما نزل فيه من القرآن ويسبه، وكان بينه وبينه حرمة وقرابة، وكعب ساكت، قال: فانطلق الرجل إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين؟ ألم تراني ذكرت ما نزل في عبد الله بن أبي، فلم يكن من كعب -يعني لم يظهر غضبه- .

فالتقى عمر كعباً فقال: ألم أخبر أنَّ عبد الله بن أبي ذُكر عندك فلم يكن منك -يعني غضب وعصبية-. قال كعب: قد سمعت مقالته، فلمّا رأيته كأنَّه يعمد مساءتي.

قال: فقال عمر: وددت لو ضربت أنفه، أو وددت أنِّي لو كسرت أنفه) [1] .

فكعب ﷺ ما خطرت العصبية على باله عندما ذكر الرجل قريبه المنافق، وأحسن الظنَّ في الرجل المتكلم في عبد الله بن سلول أمام كعب، مع ما بين كعب وعبد الله هذا من حرمة وقرابة، وقد أُعجب الرجل بسلامة نفس كعب، وامتلاكه لنفسه عند ما قد يثير الغضب، فأراد الرجل مكافأة كعب بالثناء عليه عند عمر ﷺ .

هذا، ولم تذكر هذه الرواية ما كان بين عمر ﷺ وبين هذا الرجل الشاتم لعبد الله أمام قريبه، وإن كان لا يبعد أن يكون عمر ﷺ قد وبخ الرجل وزجره لإثارته لحمية كعب من أجل قريبه المنافق .

هذا، وقد أراد عمر ﷺ التنويه بفضل كعب وتكريمه فذكر ما كان من كعب من عدم تعصب، وتخلصه من حمية الجاهلية، وأظهر غضبه من سلوك الرجل الشاتم لعبد الله بقوله لكعب: «وددت لو ضربت أنفه، أو وددت أني لو كسرت أنفه».

(١) الإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن أبي شيبة الكوفي العبسي، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: مختار أحمد الندوي، الدار السلفية، بومباي، الهند، ط/ الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨١م، ج١١، ص ١٠٨، كتاب: الأمراء.

وهي عبارة بليغة فيها إهانة للمسيء عبر فيها عمر رضي الله عنه عن مشاعره الغاضبة على مثير العصبية والحمية- حمية الجاهلية- وهي أي هذه العبارة خارجة مخرج التوبيخ والتهديد للرجل لئلا يعود، ولغيره لئلا يفعل مثله، وفيها تطييب لنفس كعب لما عسى أن يكون قد وقع في نفسه من شتم الرجل لعبد الله بن أبي سلول، وليس معنى العبارة بالضرورة أن عمر يقصد كسر أنف الرجل، يعرف ذلك من درس المجاز في لغة العرب.

هذا، وما أشد حرص الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على تحامي العصبية وحمية الجاهلية، حتى إنَّهم كانوا يخشون على الرجل منهم أن تكون نصرته لهم حمية لقومه وعصبية لهم.

أخرج أبو داود بسنده في سننه عن أبي هريرة، «أنَّ عمرو بن أقيش كان له رِبا في الجاهلية فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد، فلبس لأمته وركب فرسه ثم توجه قبلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جرح، فحمل إلى أهله جريحاً، فجاء سعد بن معاذ فقال لأخته: سليه، حمية لقومك أو غاضباً لهم، أم غضباً لله؟ فقال: بل غضباً لله ولرسوله، فمات، فدخل الجنة وما صلى لله صلاة» [1].

هذا، وما أبشع الحوادث التي تجرها العصبية وحمية الجاهلية، حتى إنَّها لتفعل بأصحابها وقد اشتعلت بسببها الفتنة ما لم يستطع العدو الكاشح أن يفعله بهم.

وهذا الصومال البلد المسلم العزيز لم يستطع الأجنبي أن يفرض إرادته عليه بالقوة العسكرية تحت ستار إنقاذه من المجاعة وخرج يجر أذيال الخيبة، ولكن العصبية القبلية والحزبية هدَّت واستنزفت قوى هذا البلد العزيز، في فتنة وحرب أهلية ضروس، في الوقت الذي يعاني منه الفقر والمجاعة .

(١) سنن أبي داود، راجعه وضبط أحاديثه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، بدون تاريخ، ج٣، ص ٢٠، حديث رقم: ٢٥٣٧، كتاب: الجهاد، باب: فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله عز وجل.

هذا، وقد أخرج البخاري بسنده في صحيحه عن ابن عباس، أنَّ النبي ﷺ قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطَّلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه» (١).

المبحث الرابع

الظلم والاضطهاد من أسباب الفتنة

«الظلم ضامن للخراب»، وإذا كان الظلم يشمل صوراً مختلفة، فإنَّ أبشع صوره: ملاحقة فرد، أو فئة بصنوف الظلم،حتى تضيق نفوسهم، وتمتلئ حقداً وغضباً، قد يتراكم مع عدم التنفيس عن هذا الحقد والغضب فيؤدي إلى انفجار تنطلق معه سهام الأحقاد بلا ضابط، إذ جل هم صاحب الحقد المضطهد أن يتخفف من حمله، وأن يدرك ثأره من ظالمه ومضطهده، وربما تهون عليه حياته ونفسه في سبيل ذلك، وقد رأى هذا المضطهد أو ذاك أنَّ عيشته تحت الظلم والاضطهاد شيء لا قيمة له، وقد تسيطر على المضطهد حالة أشبه بالجنون، أو هي الجنون ذاته، وبالفعل فقد تحدث العلماء والناس عما يعرف بـ (جنون الاضطهاد Paranoia) .

هذا، وقد سبق الحديث عن بعض أسباب الفتنة، من التنافس على الدنيا مع إهمال ضوابط الشريعة، والجهل والرؤوس الجهال، والعصبية وحمية الجاهلية .

وهي أسباب يسهل التشنيع على جميع أطرافها المتورطين في الفتنة بواحد أو أكثر من هذه الأسباب، لكن المنصف لا يجد أن من السهل الزراية على المضطهدين المظلومين، والطامة إذا أهمل الكاتب أو المفكر الدعوة إلى رفع الظلم عن المظلومين، ورد المظالم إلى أهلها، والطامة الكبرى إذا كان هذا الشخص أو ذاك محسوباً على

(١) صحيح البخاري،طبعة استانبول، مرجع سابق، ج ٨، ص ٣٩، كتاب: الديات،باب:من طلب دم امرئ بغير حق .

الدعوة الإسلامية، فمن يهمل الدعوة إلى رفع الظلم عن المظلومين من المضطهدين، ثم يتعرض لهم باللوم والتوبيخ إذا ظهرت منهم أو من بعضهم بادرة اعتراض، كمن يقول للمضروب لا تبك ولا يقول للضارب لا تضرب».

«وفي حديث عمر في مسنده للإسماعيلي، من طريق أبي مسلم الخولاني عن أبي عبيدة بن الجراح عن عمر رفعه -يعني عزاه للنبي ﷺ- قال: «أتاني جبريل فقال: إنَّ أمتك مفتتنة من بعدك، فقلت: من أين؟ قال: من قِبل أمرائهم وقرائهم: يمنع الأمراء الناس الحقوق، فيطلبون حقوقهم فيفتنون. ويتبع القراء هؤلاء الأمراء فيفتنون [1]»[2].

هذا، وإذا كان المسلم بما غرس الإسلام في نفسه من كراهية للظلم يشعر بالتعاطف مع من يقع عليه الظلم والاضطهاد حقيقة إلا أنَّ الإنسان الحريص على مصلحة الأمة يبادر بالإصلاح ورفع الظلم، ويسهم بقدر المستطاع في التخفيف من

---

(١) يسلم القراء أو العلماء من هذه الفتنة بالورع والعفة والزهد:

«ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

ولو عظموه في النفوس لعظما»

وما أكثر هذه النماذج المشرقة من العلماء في تاريخنا وفي حاضرنا كذلك والحمد لله رب العالمين الذين صانوا للعلم كرامته، فصانوا بذلك أنفسهم من الفتنة، وفيما يلي نموذج من هؤلاء العلماء الأبرار:

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف بسنده عن أبي إياس معاوية بن قرة قال: كنت نازلاً عند عمرو بن النعمان بن مقرن، فلما حضر رمضان جاء رجل بألفي درهم من قبل مصعب بن الزبير، فقال: إن الأمير يقرئك السلام، ويقول: إنا لم ندع قارئاً شريفاً إلا وقد وصل إليه منا معروف: فاستعن بهذين على نفقة شهرك هذا.

فقال عمرو: اقرأ على الأمير السلام، وقل له: إنا والله ما قرآنا القرآن نريد به الدنيا، ورده عليه). الإمام/ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، مرجع سابق، ج ١١، ص ١٢٦، كتاب: الأمراء.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني، دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور، باكستان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج١٣، ص ٦.

وطأة الظلم على نفوس المظلومين، حتى لا يفتك الحقد بنفوسهم مع الكبت الذي يصيبهم، أو ينفجر هذا الحقد في صورة فتنة عمياء .

هذا، وإنَّ المخلصين لا يَمَلُّون من دعوة من يقع عليه الظلم والاضطهاد إلى الاعتصام بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ والتزام منهاجهما في دفعه الظلم والاضطهاد عن نفسه، ولا يتعدى ذلك المنهاج في ثورة غضبه، وهياج شهوة الانتقام في نفسه .

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾[1].

يقول الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية: «المظلوم ماذا يفعل؟

فيه وجوه:

الأول: قال قتادة وابن عباس: لا يحب الله رفع الصوت بما يسوء غيرهن إلاَّ المظلوم، فإنَّ له أن يرفع صوته بالدعاء على من ظلمه.

الثاني: قال مجاهد: إلاَّ أن يخبر بظلم ظالمه.

الثالث: لا يجوز إظهار الأحوال المستورة المكتومة، لأنَّ ذلك يصير سبباً لوقوع الناس في الغيبة، ووقوع ذلك الإنسان في الريبة، لكن من ظُلم فيجوز إظهار ظلمه بأن يذكر أنه سُرق أو غُصب، وهذا قول الأصم.

الرابع: قال الحسن: إلا أن ينتصر من ظالمه.

قيل: نزلت الآية في أبي بكر رضي الله عنه فإنَّ رجلاً شتمه فسكت مراراً، ثم رد عليه،فقام النبي ﷺ فقال أبو بكر: شتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه قمت. قال: إنَّ ملكاً كان يجيب عنك، فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم أجلس عند مجيء الشيطان. فنزلت هذه الآية .

(١) سورة النساء، الآية (١٤٨).

ثم قال﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ وهو تحذير من التعدي في الجهر المأذون فيه، يعني: فليتق الله ولا يقل إلا الحق» [1].

هذا، ومن الشؤم على الظالم، ومن شؤم الظالم على الأمة، أن تأخذه العزة بالإثم، ويعتبر تظلم المظلوم نوعاً من الاجتراء الذي يستوجب العقاب فينطبق عليه قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [2].

فهذا المتمادي في غيه يعرض نفسه لمقت الله تعالى وغضبه، ويعرض نفسه لثورة انتقام المظلوم المضطهد، وهل يستطيع المصدور إلاَّ أن ينفث ويعرض الظالم الأمة للفتنة مع اتساع دائرة المظلومين، ومن يغضب لهم من أهل وعشيرة، ورجال أحرار يأنفون أن يظلم جارهم.

والرسول ﷺ يقول: «من أُذِلَّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره: أذلَّه الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة» [3].

قال العلامة المناوي: «من أذلَّ» بالبناء للمجهول. «عنده»: أي بحضرته أو بعلمه، «مؤمن فلم ينصره» على من ظلمه، «وهو»: أي والحال أنَّه «يقدر على أن ينصره: أذلَّه الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة».

فخذلان المؤمن: حرام شديد التحريم، دنيوياً كان مثل أن يقدر على دفع عدو يريد أن يبطش به، فلا يدفعه، أو دينياً» [4].

---

(١) تفسير الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، ط/ الثالثة، ١٤٠٥هت/ ١٩٨٥من ج١١، ص ٩٢.
(٢) سورة البقرة، الآيتان (٢٠٥، ٢٠٦).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن سهل بن حنيف، الجامع الصغير، للسيوطي، مرجع سابق، ج ٦، ص ٤٦، ٤٧.
(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، مرجع سابق، ج ٦، ص ٤٦، ٤٧.

وقد أخرج البخاري بسنده في صحيحه عن عبد الله بن عمر » أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» [١].

يقول الإمام ابن العربي: «إنَّ دفع المظالم عن الخلق من فروض الأعيان على أولي الأمر، ومن فروض الكفايات على غيرهم، فإن قام به واحد سقط عن الباقي، وإن تخلى عن المظلوم أحد من الناس وأعانه آخر لم يأثم المتخلي، حتى لو تخلى النَّاس كلهم أثموا» [٢] .

هذا، وقد أخرج الترمذي وابن ماجه في سننيهما بسنده، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» [٣].

هذا، ومهما يكن من أمر، فإنَّ على المسلم أن يؤثر مصلحة الأمة والملة على مصلحته هو، وأن يوازن بين المصالح والمضار، فيقدم الأصلح على غيره، ويصبر على أخف الضررين، ولا يخفى أنَّ اشتعال فتنة تأكل الأخضر واليابس، وتسفك فيها دماء الأبرياء، وغير ذلك من المضار تستوجب من الإنسان الحذر من أن يبوء بإثم إشعالها. وعلى المرء أن يعلم أنَّ الأيام دول، وأنَّ مع العسر يسراً، فيحافظ على اتزانه النفسي، واتزان عقله وقوله وعمله، حتى إذا فعل لا يفعل القبيح الشنيع الذي يجر عليه وعلى الأمة الوبال فيكون»كالمستجير من الرمضاء بالنار»، فيلحقه خزي الدنيا والآخرة إذا تسبب في إشعالها فتنة تيتم الأطفال، وترمل المؤمنات، وتفني الشيوخ والشباب .

(١) صحيح البخاري، ط/ استانبول، مرجع سابق، ج ٣، ص ٩٨، كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

(٢) الإمام/ ابن العربي المالكي، عارضة الحوذي لشرح صحيح الترمذي، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ج٦، ص ٨٠.

(٣) صحيح الترمذي بشرح عارضة الأحوذي، مرجع سابق، ج ٩، ص ٣١٦٥، أبواب صفة القيامة، وسنن ابن ماجه، للإمام/ ابن ماجه الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ط/ استانبول، ضمن مجموعة الكتب الستة، ج ٢، ص ١٤٠٨، كتاب: الزهد، باب: البغي.

وليتصبر صاحب الغيظ المظلوم حتى يقتص له الحق سبحانه وتعالى من ظالمه في الدنيا أو في الآخرة .

أخرج عبد الرزاق في المصنف بسنده عن هشام بن حكيم بن حزام، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الذي يعذب الناس في الدنيا يعذبه الله في الآخرة»[1].

وفي الدنيا نرى ونسمع عن مصارع الظالمين، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم عن ذلك ما فيه شفاء لنفس المؤمن المكروب، فجعل الحق سبحانه وتعالى من هؤلاء الهالكين عبرة لكل ظالم، وسلوى لكل مظلوم .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[2].

ويقبل صاحب الغيظ المظلوم، على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ليجد فيهما شفاءً لما في صدره حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[3] .

ويقول تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا

---

(١) الحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام، المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن العظمي، ط/ الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، المجلس العلمي، جوهانسبرج، جنوب أفريقيا، كراتشي، باكستان، كوجارات، الهند، ج ١١، ص ٢٤٥، باب: فمين عذب النسا في الدنيا.

(٢) سورة النمل، الآية (٥٢).

(٣) سورة يونس، الآية (٥٧).

نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [2] قال الزجاج: أي أتصبرون على البلاء، فقد عرفتم ما وجد الصابرون؟

قلت: -والقول لابن القيم-: قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر ها هنا، وفي قوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [3].

فليس لمن قد فتن دواء مثل الصبر، إن صبر كانت الفتنة ممحصة له، ومخلصة من الذنوب كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة.

فالفتنة: كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [4]. فالفتنة: قسمت النَّاس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث.

فمن صبر عليها: كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها» [5].

وقد أخرج الترمذي بسنده في السنن، عن أبي كبشة الأنماري: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: ما نقص مال من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً. ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر» أو كلمة نحوها) [6].

---

(١) سورة الإسراء، الآيات (٧٦-٨٢).
(٢) سورة الفرقان، من الآية (٢٠).
(٣) سورة النحل، من الآية (١١٠).
(٤) سورة العنكبوت، الآية (٣).
(٥) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، لإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، دار الحديث بالقاهرة، ١٩٩١م، ص ٥٣٢.
(٦) سنن الترمذي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٨٥، أبواب الزهد.

فإن المرء يزداد عزاً بالرغم عن ظالمه إذا صبر ابتغاء مرضاة الله ﷻ وخاصة إذا كان ممن هيأهم الله تعالى للقيام بواجب الدعوة إلى الله ﷻ، حتى لا تتحول جهوده من الدعوة إلى التدبير من أجل الثأر والانتقام.

وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧ ﴾[1] .

هذا، ومن كان راسخ الإيمان، واسع الأفق أحس ببرد الرضا فيما يجرى عليه من أقدار، وذلك بشغل قلبه وعقله بما هو أسمى كثيراً من الرغبة في الانتقام، إذا علم أن انتقامه هذا يفتح على المسلمين باب الفتنة وشرورها .

يقول الإمام ابن القيم: «من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته: من رحمته، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.

وقد جاء في الأثر: «إنَّ المبتلى إذا دعي له: اللهم ارحمه، يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء أرحمه» وفي أثر آخر: «إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدكم مريضه».

فمن رحمته سبحانه: أن نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم»[2].

وقد أخرج ابن ماجه في سننه بسنده عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلباً، اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي حسب دينه .

---

(١) سورة المدثر، الآية (٧).
(٢) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، مرجع سابق، ص ٥٤٤ بتصرف.

فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[1].

وأخرج أيضاً في سننه بسنده عن أبي سعيد الخدري، قال: قلت يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء»، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: «ثم الصالحون إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء»[2].

ويقول تعالى:﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥ ﴾[3].

هذا، وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب، التي رواها الإمام أحمد، في كتاب الزهد: «يقول الله تعالى: إنِّي لأزود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يزود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة، وإني أجنبهم سكونها وعيشها، كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذلك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً، لم تَكْلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى»[4].

هذا، وإن المسلم إذا تأمل ذلك وغيره من التوجيهات: آثر مصلحة آخرته على مصلحة دنياه، وآثر مصلحة أمته على مصلحة إنفاذ شهوة انتقامه دون مبالاة بما سيجره إنفاذ شهوته هذه من مصائب وويلات وفتنة، والعياذ بالله ﷻ .

مرة أخرى أقول ناصحاً:

فلا يندفع المسلم، تحت ضغط الظلم والحرمان المتعمد من حقوقه إلى التدمير والتخريب وإشعال نيران الفتنة، وإنما يقف بعين اليقظة وببصيرة المؤمن، لينقي فكره أولاً بأول من الهواجس التي قد تعرض لمن هو في مثل حاله من الظلم والاضطهاد،

---

(١) سنن ابن ماجه، مرجع سابق، ج٢، ص ١٣٣٤، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء .
(٢) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٣٣٤، ١٣٥، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء.
(٣) سورة الأنبياء، من الآية (٣٥).
(٤) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، تصوير، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ، مطابع مؤسسة الرسالة، بيروت، ج ١٠، ص ١٣٠.

إذ يرى أنَّه الخاسر وحده في كل الأحوال، فيقدم على التخريب والتدمير، وتستولي عليه نزعة انتحارية تخريبية، لكنَّ المسلم الذي يعتصم بالله يهديه الله تعالى إلى صراط مستقيم، والمسلم يعلم أن الدنيا ليست نهاية المطاف، ولسان حاله يقول:

ستعــــلم يـــا ظـــلوم إذا التقــينا

غــداً لــدى الإلـه مــن المــلوم

وختاماً:

فإن الظلم والاضطهاد من أخطر أساب الفتنة، وخصوصاً إذا اقترن الظلم والاضطهاد بمحاولة استئصال الخصوم أدبياً أو جسدياً أيضاً .

إنَّ أصحاب اتجاه «الاستئصال» للمخالف من أي فريق كانوا هم أحد أسباب الفتنة، فهم لضيق أفقهم، ولهوى نفوسهم، أو لضعفهم عن المنازلة الفكرية والسياسية والاجتماعية للمخالفين يتبنون نظرية «الاستئصال» والحرب المفتوحة لا يتقيدون فيها بمروءة ولا دين ضد من يخالفهم في الرأي، خلافاً سلمياً .

قال العلامة المناوي: «وقد وقع للسبكي أنَّه دخل على بعض الأمراء وعليه خلعة من حرير فأخذ يلاطفه ويداعبه إلى أن قال له في أثناء المباسطة: يا أمير لبس الصوف الغالي العالي أحسن منظراً عندي من هذا وأكثر رونقاً وطلاوة ومع ذلك يحل وذا يحرم فاستحسن الأمير كلامه وخلع الخلعة بطيب نفس فلما خرج وجد أعداؤه من طائفته فرصة فانتهزها وقالوا: يا أمير ما قصد إلا الطعن عليك والتعريض بأنك تفعل المحرم فأدى ذلك إلى عزله من منصبه وأوذي [1]كثيراً» [2].

هذا، وفي مثل هذه الحالة تحسن النصيحة التي أنشدها بعضهم إذ يقول:

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك

كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقول إبراهيم الخواص:

---

(١) إن الفقيه الورع يتبسط مع الخلق، ويتلطف في عشرتهم هكذا كما فعل الإمام السبكي، لكن دون تفريط في أحكام الدين، فإن"الفقيه بتساهله، وتهوره: تنقلب الأحكام، وتضل الأنام، ويعود الوهن على الإسلام»، العلامة/ عبد الرءوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة، بيروت، لبنا، بدون تاريخ، ج ١، ص ٥٢ بتصرف.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، مرجع سابق، ج٦، ص ٢٦١.

صبرت على بعض الأذى خوف كله

ودافعت عن نفسي لنفسي فعـــزت

وجرّعتها المكروه حتى تدربـــت

ولو لم أجرعهــــــا إذاً لاشمأزت

ألا رب ذلٍ ساق للنفس عـــزة

ويارب نفس بالتذلل عـــــزت

إذا ما مددت كفي ألتمــس الغنــى

إلى غير من قال اسألوني فشلت

سأصبر جهدي إن في الصبر عزة

وأرضى بدنياي وإن هي قـــلــت (١)

هذا، والعقلاء يدركون خطورة الاتجاه نحو استئصال الخصوم، وعدم إيجاد صيغة للتعايش السلمي بتقريب وجهات النظر في القضايا محل النزاع طالما كانت محلاً للاجتهاد إذ إنَّ من يرى أهله وقومه يتعرضون لذلك لا يتوانى في أغلب الأحوال عن السعي لقطع يد الفاعل، راكباً في ذلك الصعب والذلول، بل قد يتعدى في ذلك حدود الشرع الحنيف، والعقل السليم.

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف قال: حدثنا أبو أسامة عن ليث عن أبي نضرة قال: كنَّا نتحدث أنَّ بني فلان يصيبهم قتل شديد، فإذا كان ذلك هرب منهم أربعة رهط إلى الروم، فجلبوا الروم على المسلمين» (٢).

(١) المرجع السابق، ج٢، ص ١٠٠.
(٢) ابن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، مرجع سابق، ج١١، ص ٩٧، كتاب الأمراء.

ولو ترك أصحاب الاتجاه نحو «الاستئصال» شؤم طباعهم، وأخذوا بأمر الشرع لأصابوا الحق في معالجتهم للأمور، أو قاربوا الحق، لتعرضهم لرضي الرب سبحانه وتعالى، ولكنَّهم لمرض قلوبهم تجدهم يسارعون في الإثم والعدوان ويحرضون على الأذى بل وسفك الدماء، مما يعود على الأمة بأوخم العواقب، ويمهد للفتنة ابتداء، أو يعيدها جذعة بعدما انطفأت نارها.

وهذه صورة من الخبث لازالت تتكرر مع شديد الأسف وتجلب على الأمة الشؤم والفتنة ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

فهذا... (سليمان بن هشام) الأموي، وقد أدرك (أبا العباس) فأمنَّه فأقعده إلى جنبه، فقال سُديف شاعر أبي العباس ومولاه:

لا يغرنك ما ترى من رجـــــال

إن تحت الضلوع داء دوِّيا

فضع السيف وارفع السوط حتى

لا ترى فوق ظهرها أُمويـــا

فقتله أبو العباس [1].

فهذا الشاعر الخبيث قد قتل بلسانه، ودعا إلى استئصال فريق من المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وقد ذهبت دولتهم وريحهم.

وإذا كان الخبيث قد برر تحريضه على القتل والاستئصال بقوله: «إنَّ تحت الضلوع داء دويّا» فإنَّه قد تعامى عن العلاج الصحيح، والهدي النبوي الكريم، وقد عفا النبي ﷺ عن الذين نصبوا لحربه السنوات الطوال وكانوا مشركين، فعفا عنهم يوم الفتح وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فكيف بقوم مسلمين في أيدي قوم مسلمين.

(١) ابن قتيبة، المعارف، مرجع سابق، ص ٣٦٥.

وإذا كان من -سليمان بن هشام- هذا، أو غيره خطورة كبيرة، فإنَّ الاحتياط لا يجوِّز لمسلم أن يستأصل شأفة قوم مسلمين، من أجل الحفاظ على ملكه وسلطانه، ولا يجوز لإنسان أن يشير على آخر بذلك الإثم والعدوان. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول في الحديث الذي أخرجه البخاري بسنده في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلاَّ كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى» [1].

يقول الإمام ابن حجر: «البطانة: الدخلاء، جمع دخيل وهو الذي يدخل على الرئيس في مكان خلوته، ويفضي إليه بسِّره، ويصدقه فيما يخبره به، مما يخفى عليه من أمر رعيته.

وإنَّ المصيبة إنما تدخل على الحاكم المأمون من قبوله قول من لا يوثق به، إذا كان هو حسن الظن به، فيجب عليه أن يتثبت في مثل ذلك» [2].

وإنَّ سلوك بطانة السوء التي تأمر بالشر وتحض عليه يعرضهم لسخط الله تعالى والخزي في الدنيا والآخرة.

أخرج البخاري بسنده في صحيحه عن أبي هريرة: قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع بها درجات.

وإنَّ العبد ليتلكم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[3].

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، طبعة لاهور، باكستان، مرجع سابق، ج ١٣، ص ١٨٩، كتاب: الأحكام، باب: بطانة الإمام وأهل مشورته .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام/ ابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث بالقاهرة، ط/ ١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١٢، ص ٢٠٢ بتصرف.

(٣) صحيح البخاري بحاشية السندي، دار إحياء الكتب العربية بمصر، بدون تاريخ، ج ٤، ص ١٢٦ .

وأخرج ابن ماجه بسنده في سننه عن أبي أمامة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة: عبد أذهب آخرته بدنيا غيره»[1].

هذا، وقد ذكر الشيخ يوسف أحمد نصر الدجوي، في «كتاب سبيل السعادة في فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الإسلامية» ذكر تعليلاً لتقدم المنافقين وحظوتهم عند البعض، وهو ما ينطبق على بطانة السوء المشار إليها آنفاً، يقول الشيخ:

«أبنَّا أنَّ النفس إذا لم تتحلى بأخلاق الإسلام تأبى إلاَّ أن تنفذ هواها، ولا تميل إلا لمن يساعدها على ذلك، وتنفر كل النفور ممن يضع لها العقبات في طرق ما تهواه، وإن كان أنصح الناصحين لها وأعظم المشفقين عليها، وأنها مجبولة على المدح والثناء (حب الثناء طبيعة الإنسان) [هكذا يقولون]، لأنها تستشعر بذلك رفعتها وكمالها، فترتاح له وتحن إليه، وإن كانت تمدح بما ليس فيها، لأنها كثيراً ما يغالطها الوهم ويضلها الخيال (وقلّ من يعرف عيب نفسه)، أو لا يعتقد فيها الكمال.

ولهذا ترى المنافق المتملق سرعان ما يستولي على النفوس، ويأخذ بحبات القلوب، لأنَّه قد سبق لك أنَّ في النفوس ألوهية كامنة، وأنَّها تسعى وراءها على قدر ما يمكنها، وقد وجدت في هذا المنافق أمنيتها المقصودة، وضالتها المنشودة.

وجدت منه عابداً عارفاً بواجبات الألوهية فقابلها بالامتثال الأعمى، ولم يبحث وراءها عن سر ما أمرت ولا حكمة ما قضت، شأن العبد الذي استسلم بكليته لمولاه.

وجدت منه موافقاً لأغراضها، ومسارعاً إلى شهواتها، وهي ترتاح لذلك ارتياحاً وجدانياً وإن كانت تمقته إذا رجعت إلى عقلها، ولكن عرفنا من أحوال النفوس أنَّ الغالب عليها هو الأمور الوجدانية، دون البرهانية، حتى في أذكي الأذكياء، وأكبر الكبراء.

---

(١) سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ط/ استانبول، ضمن مجموعة الكتب السنة، ج٢، ص ١٣١١، كتاب: الفتن، باب: إذا التقى المسلمين بسيفيهما.

وانظر إن شئت إلى السكير الذي يئن من شرب الخمر، ويعتقد أنه أعظم مفسدة، وأكبر مضرة كيف يرتاح إلى ندمائه، ويحن إليهم حنينه إلى الكأس، فتلك غريزة في النفوس كلها تميل إلى من يوافقها على ما تشتهي مهما كان» [(١)]، والمعصوم من عصمه الله تعالى.

هذا، وخطورة بطانة السوء على الأمراء أنهم يسيئون إليهم عند الناس، ويجعلون سوء ظن الناس يتسارع في أمرائهم مما يوقع النفرة في نفوس الرعية، فلا يلينون لطاعة الأمراء، ويجعل منهم تربة خصيبة للشائعات، ويسهل عليهم مساندة الخارجين على الأمراء، أو الوقوف منهم موقفاً سلبياً.

وتشويه صورة الأمراء بسبب بطانة السوء إذا سيطرت على رأي الأمراء وتوجهاتهم، أو كان لها الوجود الظاهر في سلطانهم، هذا التشويه واقع لا محالة في نفوس الأكثر، على القول الشائع «الطيور على أشكالها تقع».

وقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف بسنده عن وهب بن كيسان قال: كتب رجل من أهل العراق إلى ابن الزبير حين بويع: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن لأهل طاعة الله ولأهل الخير علامة يعرفون بها، ويعرف فيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بطاعة الله .

واعلم أنَّما مثل الإمام مثل السوق يأتيه ما زكا فيه، فإن كان براً جاءه أهل البر ببرهم، وإن كان فاجراً جاءه أهل الفجور بفجورهم» [(٢)].

هذا، وإذا سلمنا بأن كل فريق من المختلفين قد لا يخلو من أناس مثل هؤلاء، ربما كان مزاجهم واستعدادهم يؤهلهم لذلك فيصبح من الواجب احتواء هؤلاء بالطرق السلمية، والاحتياط حتى لا ينساق المرء وراءهم .

(١) الشيخ/ يوسف أحمد نصر الدجوي، كتاب: سبيل السعادة في فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الإسلامية، مطبعة النهضة الأدبية بمصر، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، ص ٦١، ٦٢.
(٢) الإمام/ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، مرجع سابق، ج ٨، ص ٩٦، كتاب الأمراء.

فالتلطف بالمخالف، والأخذ بالصحيح من وجهات النظر مهما كان صاحبها، وخاصة مع الشباب وأد للفتنة في مهدها.

فالواقع كما يقول الشيخ الباقوري:

«أنَّ ذوي الأسنان الكبيرة، وأصحاب التجارب الطويلة لا ينفكون يؤثرون التقية والمصانعة، بعيداً عن المصارحة والمجاهرة، بخلاف الشباب، فإنَّهم أدنى إلى المعالنة، وعدم المبالاة بالطغاة المستبدين» (١).

هذا، وتحذير المضطهد من إشعالها فتنة لا يعني أننا نوطئ ظهر المظلوم لظالمه، بل له أن يرد الظلم عن نفسه بشتى الوسائل التي أجازتها الشريعة، دون أن يقوده الحقد والغضب في دروب الظلم والفساد.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢).

فليصبر المؤمن العاقل وويل للظالم من الجاهل المضطهد حتى لا يدخل بنفسه وبغيره في ظلمة ليل الفتنة البهيم .

وليعلم أنَّ الاضطهاد قد يقع في إطار ترتيب فتنة بناء على رد فعل المضطهدين تبرر المزيد من الظلم والاستبداد، وتهيئ الفرصة لأعداء الإسلام للتدخل وإحكام القبضة على رقاب المسلمين.

«فما تدري لعلك مستجير   من الرمضاء فر إلى الحريق»

---

(١) الشيخ/ أحمد حسن الباقوري، العودة إلى الإيمان، سلسلة كتابك، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧من ص ١١، ١٢ بتصرف.

(٢) سورة الشورى، الآيات (٤١ ٤٣).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ [1].

ومن كل ما ذكر نخلص إلى أنَّ الظلم وبصفة خاصة إذا تحول إلى اضطهاد موجه ضد فئة من فئات المجتمع: هو من أعظم أسباب الفتنة وأخطرها، مما يوجب على الظالم أن يكف عن ظلمه لمخالفته للشريعة التي أمرت بالعدل والإحسان، ولما ينشأ عن ظلمه من فساد.

كما يجب على دعاة الإصلاح المناداة برفع الظلم، ورد المظالم إلى أهلها.

كما يجب على جميع المسلمين نصرة المظلوم، كل على قدر طاقته، وفي ضوء قواعد الشرع الحنيف.

هذا، وقد أخرج الترمذي بسنده في السنن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس: إنكم تقرأون هذه الآية﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [2] وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب منه» [3].

وفي المبحث التالي إن شاء الله مزيد بيان حول ظهور الفساد مع التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره سبباً من أسباب الفتنة.

(١) سورة الطلاق، من الآية (٥).

(٢) سورة المائدة، من الآية (١٠٥).

(٣) سنن الترمذي، مرجع سابق، ج٣، ص ٣١٦، أبواب الفتن، باب: متا جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر .

المبحث الخامس

ظهور الفساد مع التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب الفتنة

لقد بعث الله تعالى رسوله بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وقد قام ﷺ بالدعوة إلى الله ﷻ، وجاهد في الله حق جهاده، حتى بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وأخرج الحق سبحانه وتعالى به للنَّاس خير أمة أخرجت للناس، تؤمن بالله تعالى، وتحافظ على أمانة هذا الدين وخيرية الأمة وصلاحها، فتقوِّم المعوج، وتقيم المائل، وجعل سبحانه وتعالى ذلك فرضاً من فروض الدين على هذه الأمة.

ولَّما كان المجتمع الإسلامي بطبيعة الحال مجتمعاً بشرياً و «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» فقد دعاهم سبحانه وتعالى إلى المبادرة بالتوبة والإنابة، يعينهم على ذلك وازع الإيمان، الذي يمنع صاحبه من التورط في القبائح، والفرار منها بالتوبة إذا زلت به القدم .

وقد فرض الحق سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من رحمة الله تعالى، حتى يستقيم أمر الإنسان بوازع من داخله، وبوازع من خارج نفسه، يشد من عزمه إذا ضعفت إرادته واحتوشته الشياطين، فكأن يد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وقد امتدت لتخلصه من أسر أعدائه، الذين يزينون للناس الشر .

وإنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحولان بين المرء وهلاكه بانتهاك محارم الله، ويمنعان من ظهور الفساد بما يترتب على ظهوره من خسران في الدنيا والآخرة.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم بسنده في صحيحيهما عن النعمان بن بشير» قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الحلال بيِّن وإنَّ الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن

وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإنَّ لكل ملك حمى، ألا وإنَّ حمى الله في الأرض محارمه»[١].

وأخرج مسلم بسنده في صحيحه أيضاً عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يغار، وإنَّ المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله»[٢].

فالحق سبحانه وتعالى يغضب إذا انتهكت المحارم، وارتكبت الفواحش، وإنَّ المرء إذا تعدى حدود الله تعالى، فقد ظلم نفسه، وعرضها لعذاب الله تعالى في الآخرة، بل وفي الدنيا.

قال تعالى: ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾** ﴾[٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾** ﴾[٤].

وإنَّ من رحمة الله تعالى بخلقه أن حذرهم نفسه لئلا يغتروا به فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا** ﴾[٥] قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد أن حذرهم من نفسه، لئلا يغتروا به»[٦].

---

(١) صحيح البخاري، بحاشية السندي، مرجع سابق، ج١، ص ١٩، ٢٠، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه وعرضه، وفي ج٢، ص ٣، كتاب: البيوع، باب: الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبها، وفي صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ج ١١، ص ٢٦ ٢٨، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي،دار القلم، بيروت، لبنان،ط/ الأولى، بدون تاريخ، ج ١٧، ص ٨٤، كتاب: التوبة، باب: غيرة الله وتحريم الفواحش.

(٣) سورة النساء، من الآية (١٢٣).

(٤) سورة البقرة، الآيتان (٢٧٨، ٢٧٩).

(٥) سورة آل عمران، من الآية (٣٠).

(٦) الإمام/ ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، مرجع سابق، ص ٥٤٤، ٥٤٥.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾[(١)].

وأخرج مالك في الموطأ أنَّه بلغه أن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟

فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا كثر الخبث»[(٢)].

هذان وكم من بلاد عانت ويلات الفتنة والحروب الأهلية نسأل الله أن يعافينا وإياهم منها بعد أن راجت فيها تجارة الفاحشة، وذاع صيتها عند القاصي والداني، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فالعداوة والبغضاء من ثمرات الفواحش، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾[(٣)].

وإنَّ المعصية إذا عمل بها جهاراً دلَّ ذلك على ضعف الوازع الإيماني في النفوس،وسيطرة الأهواء والشهوات، مما يجعل هذه البيئات تربة صالحة لترعرع بذور الفتنة فيها، وعرضة لعقاب الله ﷻ.

أخرج مالك في الموطأ عن إسماعيل بن أبي حكيم: أنَّه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: كان يقال: «إنَّ الله تبارك وتعالى لا يعذِّب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عمل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم»[(٤)].

(١) سورة الأنعام، الآية (٦٥).
(٢) الموطأ، للإمام مالك بن أنس، ضمن موسوعة السنة، دار الدعوة ودار سحنون بتونس، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج٢، ص ٩٩١، كتاب: الكلام، باب: ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة.
(٣) سورة المائدة، الآية (٩١).
(٤) الموطأ، للإمام مالك بن أنس، المرجع السابق، ج٢، ص ٩٩١ن كتاب: الكلام، باب: ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة .

إنَّ استفحال الفواحش وصور الفساد المختلفة حتى يعلن بها الماجنون: من أمارات التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكيف إذا استمر الناس في هذا التقصير المشؤوم؟!

هذا، ويقول الإمام ابن العربي المالكي:»الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: أصل الدين، وعمدة من عمد المسلمين، وخلافة رب العالمين، والمقصود الأكبر من فائدة بعث النبيين، وهو فرض على جميع الناس، مثنى وفرادى، بشرط القدرة عليه، والأمن على النفس والمال معه» [1].

أخرج الترمذي بسنده في السنن، عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، ومن لم يستطيع فبلسانه، ومن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [2].

هذا،ومن قدر على إنكارها مع الخوف على نفسه كان إنكاره مندوباً إليه ومحثوثاً عليه، لأنَّ المخاطرة بالنفوس في إعزاز الدين مأمور بها، كما يعذر في قتال المشركين، وقتال البغاة المتأولين، وقتال مانعي الحقوق، بحيث لا يمكن تخليصها منهم إلا بالقتال.

وقد قال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» [3]، جعلها أفضل الجهاد لأنَّ قائلها قد جاد بنفسه كل الجود، بخلاف من يلاقي قرنه من القتال فإنَّه يجوز أن يقهره ويقتله، فلا يكون بذله نفسه مع تجويز سلامتها كبذل الناهي عن المنكر مع يأسه من السلامة» [4].

---

(١) الإمام ابن العربي المالكي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، مرجع سابق، ج٩، ص ١٣.

(٢) سنن الترمذي، مرجع سابق، ج٣، ص ٣١٧، ٣١٨، أبواب الفتن، باب: ما جاء في تغيير المنكر باليد، أو باللسان، أو بالقلب.

(٣) أخرجه الترمذي بسنده في السنن عن أب سعيد الخدري، ولفظه: في رواية الترمذي أن النبي ﷺ قال: "إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر" سنن الترمذي، مرجع سابق، ج٣، ص ٣١٨، أبواب الفتن، باب: أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر.

(٤) الإمام أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مرجع سابق، ج١، ص ٩٤، ٩٥.

هذا، و«لا يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون المأمور والمنهي عاصيين، بل يشترط فيه أن يكون أحدهما ملابساً لمفسدة واجبة الدفع، والآخر تاركاً لمصلحة واجبة التحصيل، ولذلك أمثلة:

أحدهما: أمر الجاهل بمعروف لا يعرف إيجابه .

المثال الثاني: نهيه عن منكر لا يعرف تحريمه» [١].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من نعم الله ﷻ على الناس، وإنَّ الناظر في هذا الشأن ليدرك فضل الله تعالى إذ جعله فرضاً من فروض الدين، إذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانة لبقاء المجتمع سليماً معافى من الآثام والفواحش والمخالفات، وفي الوقت نفسه تسكين وتهدئة لنفس مظلوم، أو متضرر، أو غيور، وإلا امتلأت النفوس غضباً وغيظاً، ومع كثرة الغاضبين، المغتاظة قلوبهم يمكن أن تندلع فتنة هوجاء إذا انفجر الغضب والغيظ.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنَّ انتهاك محارم الله تعالى يستوجب غضب الرب تعالى ونقمته، كما سبق بيانه، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حصانة من غضب الرب سبحانه وتعالى وحصانة من غضب الناس، وحصانة للمجتمع من الانهيار والغرق في الفتن ومن هنا وجب ألا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا تحققت شروط الأمر والنهي، على النحو الذي فصله العلماء [٢].

(١) المرجع السابق، ج١، ص ١٠٢.
(٢) يقول الإمام ابن رشد -الجد-:

"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم بثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون عالماً بالمعروف والمنكر، لأنه إن لم يكن عارفاً بهما لم يصح أمر ولا نهي، إذ لا يأمن أن ينهي عن معروف أو يأمر بمنكر.

والثاني: أن يأمن من أن يؤدي إنكاره المنكر إلى منكر أكثر منه، مثل أن ينهي عن شرب الخمر فيؤول نهيه عن ذلك إلى قتل نفس (كقاطع الطريق إذا وُجد مخموراً وإن أفاق قتل) وما أشبه ذلك، لأنه إذا لم يأمن من ذلك لم يجز له أمر ولا نهي (اللهم إذا كانت المخاطرة بنفسه هو في سبيل الله) =

أخرج أبو داود في سننه والترمذي أيضاً في سننه بسنده، واللفظ لأبي داود عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾

=والثالث: أن يعلم أو يغلب على ظنه أن إنكاره المنكر مزيل له، وأن أمره بالمعروف مؤثر ونافع، لأنه إذ لم يعلم ذلك، ولا غلب على ظنه لم يجب عليه أمر ولا نهي.

فالشرطان الأول والثاني مشترطان في الجواز، والشرط الثالث مشترط في الوجوب. فإذا عدم الشرط الأول والثاني لم يجز أن يأمر ولا ينهي، وإذا عدم الشرط الثالث، ووجد الشرطان الأول والثاني: جاز له أن يأمر وينهي، ولم يجب ذلك عليه، إلا أنه مستحب له وإن غلب على ظنه أنه لا يطيعه، إذ لعله سيطيعه، لاسيما إذا رفق به، فإن الله ﷻ يقول: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾(سورة طه، الآية: ٤٤).

وإذا رأى الرجل أحد أبويه على منكر من المناكر فليعظهما برفق، وليقل لهما في ذلك قولاً كريماً، كما أمره الله تعالى، حيث يقول:﴿ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤).

فإذا كثرت المناكير في الطرقات من حمل الخمر فيها، ومشي الرجال مع النساء الشواب-الأجانب بالمعنى الفقهي- يحادثونهم وما أشبه ذلك من المناكير الظاهرة وجب على الإمام تغييرها جهده بأن يولي من يجعل إليه تفقد ذلك والقيام به، قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ولكن إذا عمل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم ".

ومن مر به شيء من ذلك أو اعترضه في طريقه وجب عليه أن ينكره على الشرائط الثلاثة المذكورة، فإن لم يقدر على ذلك بيده ولا بلسانه أنكر بقلبه) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الجد)، المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق: د/ محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٣، ص ٤٢٥ ٤٢٧ بتصرف.

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[1] ثم قال: «كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يدي الظالم، ولتأطرنَّه على الحق أطراً[2] ولتقصرنَّه على الحق قصراً أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم»[3].

هذا، وفي الرواية عند الترمذي، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا وقعت بنو إسرائيل في المعاصي فنهتهم علماؤهم فلم ينتهو فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، قال: فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً، فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم أطراً»[4].

فالقوم كانوا يتناهون عن المنكر بنوع من السلبية وعدم المبالاة، فصار نهيهم شكلاً بلا روح، ومن ثمَّ كان في حكم العدم، فوصفهم الحق سبحانه بأنَّهم ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾[5]. فلا يعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أداءً للفرض الذي فرضه الله تعالى على العلماء وغيرهم، ولا يؤتي ثمرته في حفظ الدين ونظام المجتمع حتى تكون فيه الجدية اللائقة بالمأمور به والمنهي عنه، إذ الغرض من الأمر والنهي هو التغيير وليس مجرد الأمر والنهي.

(١) الآيات: ٧٨-٨١ من سورة المائدة.
(٢) (أصل الأطر: العطف والثني، أي: لتردنه إلى الحق ولتعطفنه عليه) .
(٣) سنن أبي داود، مرجع سابق، ج٤، ص ١١٢، حديث رقم: ٤٣٣٦، ٤٣٣٧، كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي. وسنن الترمذي، مرجع سابق، ج٤، أبواب التفسير، سورة المائدة، وأخرجه كذلك في نفس الباب بسنده عن أبي عبيدة.
(٤) سنن الترمذي، المرجع السابق، ج ٤، ص ٣١٨، أبواب التفسير، سورة المائدة.
(٥) سورة المائدة، الآية (٧٩).

أخرج أبو داود بسنده في السنن عن أبي بكر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يعمل فيهم المعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا إلاَّ يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب»[(١)].

أخرج الترمذي بسنده في السنن عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، ومن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» [(٢)].

هذا، وإنَّ ترك العمل بما أنزل الله تعالى، والاستعاضة عنه بنظم البشر وقوانينهم، وربما ببعض عقائدهم كذلك والعياذ بالله منكر بالغ الخطورة، تتفجر بسبب هذا الترك الفتن والاضطرابات في أنحاء شتى من الأقطار الإسلامية، في عصرنا هذا.

ذلك أنَّ المسلمين الذين يعتقدون أنَّ الله تعالى قد تعبدهم بطاعة أوامره فيما يتعلق بالتشريع والحكم، كما تعبدهم بالصلاة والزكاة، والصيام، والحج، لا تهدأ خواطرهم إلا بطاعة الله ﷻ في كل ما أمر، ورؤية الإسلام ونظمه وقد سار مجتمعهم في ظلالها.

وبين تصميم المطالبين بتحكيم الشريعة الإسلامية، وبين البطء في تنفيذ جميع أحكمها، وأحياناً مع هذا البطء تخرج بعض أقلام غير مسئولة تردد مقولات أعداء الإسلام ضد الشريعة الإسلامية من مستشرقين ومبشرين وغيرهم، فيرشحوا أنفسهم باجترائهم على الإسلام الحنيف لأوصاف الكفر والفسق التي يرمون بها من بعض الغيورين على الإسلام، وقد يقع ما هو أكثر من ذلك.

وقد يحتدم الموقف، حتى يصل إلى حد الحرب والقتال، بصورة يبتهج لها أعداء الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(١) سنن أبي داود، مرجع سابق، ج٤، ص ١٢٢، حديث رقم: ٤٣٣٨، كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي.
(٢) سنن الترمذي، مرجع سابق، ج٣، ص ٣١٧، ٣١٨، أبواب الفتن، باب: ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب .

هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى: فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[1].

فنجد أنَّ تعطيل بعض الأحكام الشرعية، ممَّا يجعل القاتل في أحيان كثيرة في أقطار إسلامية مختلفة، يمضي بعض سنوات في السجن، ثم يخرج إلى المجتمع يسرح ويمرح أمام أبناء المقتول عمداً وأمام عشيرته.

فنجد أنَّ ذلك مما يشجع على جرائم الثأر التي تحرق الأخضر واليابس، عندما تشتعل بين العشائر والقبائل، ولو نفذ حكم الله تعالى، وجُعل السلطان على القاتل لأولياء المقتول بعد ثبوت التهمة لما وقع الإسراف في القتل غالباً.

قال تعالى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

هذا، والحال لا يصلح أن يكون مبرراً لجرائم الثأر والفتنة التي تحدث من جرائه، ولكنَّ القصد بيان كيف يجر الخطأ الكبير، وهو تعطيل أحكام الشريعة الإسلامية[3]، إلى صنوف الخطايا، والبلايا والمحن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أخرج ابن ماجه بسنده في السنن عن عبد الله بن عمر، قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتليتم بهنَّ وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا .

---

(١) سورة البقرة، الآيتان (١٧٨، ١٧٩).
(٢) سورة الإسراء، من الآية (٣٣).
(٣) ليس تطبيق الشريعة الإسلامية قاصراً على الحدود فقط، بل المقصود أن يتحرك المجتمع تحت ظلال الشريعة الإسلامية، وتنضبط حركته بأحكامها وآدابها أيضاً.

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم.

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل بأسهم بينهم شديد» (١) .

ويقول الإمام ابن العربي: (إنَّ معظم مقاصد الشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحفظ القانون الذي تقوم به رياسة الدين لسياسة العالمين فرض دائم إلى يوم القيامة) (٢).

والخلاصة: أنَّ ظهور الفساد مع ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو القيام به بنوع من السلبية وعدم المبالاة، أو منعه، يعد أحد أسباب تنافر القلوب وزوال ألفتها، والسقوط في مهاوي الفتنة وأتونها، والعياذ بالله ﷻ .

أخرج الترمذي بسنده في السنن، عن حذيفة بين اليمان، عن النَّبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، فتدعونه لا يستجاب لكم» (٣).

هذا، وإن كان هناك من يمنع الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّهم يكونون في الواقع هم أصل الداء، ومهيؤوا الأجواء للفتنة والثورة، وبهم يتنزل

(١) سنن ابن ماجه، مرجع سابق، ج٢، ص ٣٣٢، ٣٣٣، كتاب: الفن، باب: العقوبات.
(٢) الإمام ابن العربي المالي، عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي، مرجع سابق، ج١٠، ص ٣١٨ .
(٣) سنن الترمذي، مرجع سابق، ج٣، ص ٣١٦، ٣١٧، أبواب الفتن، باب: ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سخط الله وغضبه، ويتحقق وعيده المترتب على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان سيصيبهم الخزي الأكبر، إن لم يفيئوا إلى الرشد، فيقروا المعروف ويأمروا به، وينهوا عن المنكر ويزيلوه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[(١)].

المبحث السادس

من أسباب الفتنة : وساوس الشيطان ودسائس الأعداء

أخرج مسلم بسنده في صحيحه، عن جابر، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[(٢)].

قال النووي: «معناه: أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنَّه سعي في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن ونحوها»[(٣)].

وأخرج مسلم بسنده في صحيحه عن جابر، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ عرش إبليس على البحر فيبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة»[(٤)].

فالشيطان عندما تمرد على أمر الله تعالى، وكابر ولم يرجع عن تمرده، ولم يتب طرده الله تعالى من رحمته، فهو حريص من ثمَّ على إضلال طوائف من الناس ليكونوا حزبه وجنده، ويكونوا من أصحاب النار﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[(٥)].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان (٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ج ١٧، ص ١٦٢، كتاب:ص فات المنافقين وأحكامهم، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأنه من كل إنسان قريناً.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، مرجع سابق، ج ١٧، ص ١٦٢ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ج١٧، ص ١٦٢، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأنه مع كل إنسان قريناً.

(٥) سورة فاطر، من الآية (٦).

فمن أهم ما يسعي إليه الشيطان إيقاع الفرقة بين الناس .

وقد أخرج مسلم بسنده في صحيحه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة: أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نِعم [1] أنت» [2].

هذا، وأورد الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية بسنده عن الهيثم بن مالك الطائي: سمعت النعمان بن بشير على المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ للشيطان مصالي وفخوخاً، وإنَّ مصاليه وفخوخه البطر بنعم الله، والفخر بعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله ...» [3].

هذا، وقد حذرنا الحق سبحانه وتعالى من اتباع خطوات الشيطان، الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، يقول تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ [4] .

ولقد قصَّ الحق سبحانه وتعالى قصة إبليس وتمرده على الانقياد لأوامر الله ﷻ، وذلك في أكثر من موضع في القرآن الكريم، مما يلفت الأنظار إلى جعل هذه الوقائع التي قصها الحق سبحانه وتعالى، ابتداء من رفضه السجود لآدم كما أمره الحق سبحانه وتعالى والحوار الذي كشف فيه إبليس عن تمرده وعتوه، وتربصه الشديد بذرية آدم عليه السلام، إلى ما حدث بينه وبين آدم عليه السلام، ذلك كله مما يلفت الأنظار إلى جعل هذه الوقائع جزءاً أساسياً من ثقافة المسلم، وأنَّ على المرء أن يتثبت عند اتخاذ قراراته

---

(١) (نِعم بكسر النون، وإسكان العين، وهي نعم الموضوعة للمدح، فيمدحه لإعجابه بصنعه، وبلوغه الغاية التي أرادها) شرح النووي على صحيح مسلم، مرجع سابق، ج١٧، ص ١٦٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ج١٧، ص ١٦٢، ١٦٣، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأنه مع كل إنسان قريناً.

(٣) الإمام عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر العربي بالقاهرة، مصورة عن الطبعة الأولى، سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م، ج٨، ص ٢٦٤ .

(٤) سورة النور، من الآية (٢١).

ومواقفه، إذ إن هناك قوة شريرة تُحدث مع العقل ربما مثل ما تحدث أجهزة تشويش العدو على مراصد الطائرات، ومحطات الإذاعة، ووسائل الاتصال بين وحدات الجيش، ومن هنا كان لزاماً على العاقل الاحتياط حتى لا يحال بينه وبين التفكير السليم، والرأي الصواب، ومن ثم لا يغتر بنفسه وأفكاره، ولا يكون ألعوبة في يد الشيطان، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أخرج الإمام أحمد بسنده في مسنده عن عروة بن الزبير «أنَّ عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنَّ رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فَغِرت عليه قالت: فجاء فرأى ما أصنع، فقال: ما لك يا عائشة غِرت؟ قالت: فقلت: وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك، فقال رسول الله ﷺ: أفأخذك شيطانك؟ قالت: يا رسول الله! أو معي شيطان؟ قال: نعم، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: نعم، ولكن ربي عز وجل أعانني عليه حتى أسلم»(١).

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾(٢).

ولقد حذر الحق سبحانه وتعالى بني آدم من فتنة الشيطان الرجيم وكيده، فقال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا

---

(١) المسند، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، دار الفكر العربي بمصر، بدون تاريخ، ج ٦، ص ١١٥.
(٢) سورة الأعراف، الآيات (١١ ١٨).

لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] .

هذا، وإن المسلم الذي أسلم وجهه وقلبه لله ﷻ، يحفظه الحق سبحانه وتعالى من أن يكون ولياً للشيطان، وآلة من آلاته.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[2] .

فعباد الله تعالى المخلصين لا يكون للشيطان ونزغاته سلطان على آرائهم، ولا قراراتهم، ولا مواقفهم، وإذا وسوس إليهم الشيطان، تنبهوا إليه وسدوا المنافذ دونه، واستعاذوا بالله ﷻ من فتنه ونزغه.

يقول تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[3].

أمَّا هؤلاء الذين غفلوا عن تحذير الله تعالى لهم من الشيطان الرجيم، أو أعرضوا عن ذلك، فتصيبهم النكبة تلو النكبة، والفتنة بعد الفتنة، بعد أن أسلموا قيادهم للشيطان يقودهم بين جنادل ودعاثر.

ويقول الحق سبحانه وتعالى لهم: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[4] .

والعبادة: الطاعة، فمن عبد الله تعالى أطاعه، ومن أطاع الشيطان فقد عبده.

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٧).

(٢) سورة الحجر، الآية (٤٢).

(٣) سورة الأعراف، الآيتان (٢٠٠، ٢٠١).

(٤) سورة يس، الآيات (٦٠ ٦٢).

دسائس الأعداء:

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[2].

هذا، ومن تمام المحنة والاختبار أن يتواطئ شياطين الإنس وشياطين الجن على محاولة إضلال الإنسان وفتنته.

وشياطين الإنس أضر بالإنسان، إذ يأتي في صورة الأخ الناصح، والناصر للقضايا التي تمس الناس وتؤرقهم، والراغب في نهضة الأمة وهو غاش مخادع يبغي ذلها، وتبعيتها لأعدائها، ويتوسل إلى ذلك بمعسول القول، وكذا بالإغراء بالمال والجاه، وغير ذلك من أمور يسيل لها لعاب الأغرار، والذين باعوا دينهم بدنياهم .

هذا، وإن الشيطان ليقذف بوساوسه في قلوب أوليائه وحزبه، فإذا بهؤلاء وقد أخذوا ينفثون هذه الوساوس والسموم في نفوس الناس، وفي أجواء مجتمعاتهم، دون مبالاة بما تحدثه هذه الوساوس من فتنة وخراب .

وإنَّ الذي يلقي بزمامه إلى أعداء الإسلام، ويركن إليهم، ويتخذهم أولياء من دون المؤمنين فقد خالف تعاليم الإسلام مخالفة شنيعة، وصير نفسه جسراً يعبر فوقه أعداء الإسلام بأفكارهم المسمومة، إلى عقول بعض الناشئة في المجتمع الإسلامي، ومن ثمَّ يكون كمن أضرم الناس في بيته ووطنه، عندما يتسبب في إيجاد فئة من أبناء المسلمين تقف من أمتهم ودينها موقف العداوة، وتود حمل الناس على الانسلاخ من

---

(١) سورة فاطر، الآية (٦).

(٢) سورة الأنعام، الآية (١١٢).

دينهم عقيدة وشريعة وأخلاقاً، أو تود منهم أن يأخذوا ببعض الكتاب وينبذوا بعضه وراءهم ظهرياً والعياذ بالله ﷻ.

وهذا ما لن يكون من مسلم يود أن يبقى مسلماً أبداً، ولذا يقع الصراع وانفجار الأوضاع من الداخل، كبديل عن الحروب الصليبية وغيرها التي جربها أعداء الإسلام، فوجدوا الأمة تفزع إلى الجهاد الذي يفجر طاقاتها ويجمع شملها .

وقد قال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[(١)].

هذا ويصف الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق تجربته في الغرب، وقد ذهب إلى فرنسا في شبابه لدراسة الفكر الغربي في منابعه.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: «أحب أن أصف الجو الذي عشته: دخلت الجامعة وبدأت الدراسة في علم الاجتماع، وعلم النفس، ومادة الأخلاق، وتاريخ الأديان.

وكانت هذه المواد يتزعم دراستها وتدريسها الأساتذة اليهود، أو الذين تلمذوا على الأساتذة اليهود .

وكانت هذه المواد كلها تسير في تيار محدد هو: أنها (علوم مجتمع) أي أنَّها لا تتقيد بوحي السماء، ولا تتقيد بالدين، على أنَّه وضع إلهي، فهي تدريس موضوعي على أنَّها ظواهر اجتماعية، وظواهر إنسانية.

وبدأنا في الدراسة نسمع مختلف الآراء في نشأة الدين ومختلف الآراء في تفسير النبوة، وينتهي الأمر برأي الأستاذ في الموضوع، وليس في هذه الآراء على اختلافها وتعددها ما يتجه إلى أنَّ الدين وحي من السماء، أو أنَّ النبي موصول الأسباب بالسماء.

(١) سورة آل عمران، الآية (٢٨، ٢٩).

وإذا انتظرنا من الأستاذ أن يصحح الوضع، فيدلي في النهاية برأيه مثبتاً الألوهية والنبوة، هادماً للآراء الأخرى واصفاً لها بأنَّها ضلال!

إذا انتظرنا ذلك منه فإنَّنا نكون واهمين فإنَّه واحد من هؤلاء العشرات من الأساتذة في هذه المواد وما شابهها، المنغمسين في تيار المادية.

إنَّ للدين فيما يرون نشأة إنسانية واجتماعية، وقد تواضع الناس على سلوك معين سموه: (فضيلة) وعلى سلوك آخر سموه (رذيلة)، وكل الظواهر والمظاهر، في هذه الدراسات اعتبارية، نسبية، متغيرة متبدلة، لا تثبت على حال، ولا تستقر على وضع، لأنَّها كل يوم تتبدل حالاً بحال.

والشاب الذي انتقل من الأقسام الثانوية، إلى الجامعة يتأثر بأستاذه، فإذا كان الأساتذة متكاتفين على هدم القيم الثابتة، والمثل العليا التي يقررها الدين، وتقررها الأخلاق، إذا كان الأمر كذلك فإنَّ الطالب الذي يعيش في أجواء تتعاون كلها على هدم عقائده ومثله وقيمه ينتهي به الأمر في الأغلب الأعم من الحالات بأنَّ تنهار هذه القيم في شعوره.

ومن هنا كانت الظاهرة التي نجدها في طلبة الجامعات في أوربا من الاستخفاف بكثير من العقائد، وبكثير من القيم، وينتهي الطالب بالإلحاد، أو على أقل تقدير بالإيمان الكامن الذي لا فاعلية له، ولا تأثير له في سلوك الإنسان .

وكنت من غير شك أضيق بكل ما يجري في هذه الدراسات» [(١)]. انتهى كلام الدكتور عبد الحليم محمود .

هذا، والقوم في ديارهم، وهم يعيشون في أجواء الملل الْمُحَرَّفة، والتي طُمست معالم الحق فيها، وتشبعت بمختلف الآراء الوثنية يحتاجون إلى بذل كثير من المجهود

(١) الدكتور/ عبد الحليم محمود، موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، مطابع دار الشعب بالقاهرة، ١٣٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ١٥٤ ١٥٦ بتصرف.

للتخلي عن تشككهم في أمر الدين، ولكنَّ الطامة الكبرى هي بهؤلاء الذين وُلدوا في الإسلام، وعاشوا في بيئة إسلامية، وفي استطاعتهم أن يصلوا إلى الحقائق التي تكشف زيف كل شبهة بأدنى مجهود في الاتجاه الصحيح، ولكنَّهم غير مبالين بذلك، لأنَّهم قد استسلموا للفكر الغربي، في تبعية مهينة، ثم بعد ذلك أخذوا في محاولةِ حملِ قومهم على هذه الأفكار الإلحادية، من خلال كراسيهم الجامعية التي حصلوا عليها بعد عودتهم من الدراسة في الغرب والشرق وحصولهم على الشهادات التي اقتطع الناس من أقواتهم ليبعثوهم إلى هذه البلاد ليحصلوا على ما فيها من تقدم علمي، فإذا بهم كالرجل الذي أرسلوه ليحضر لهم شاة جيدة، فجعل يتفحص القطيع وفي النهاية أخذ بأذن كلب الغنم وعاد.

والحق أنَّ هناك الكثير من الأفاضل الذين درسوا في الغرب والشرق، فما خانوا لأمتهم عهداً، ولا سمحوا لأحد أن يتخذهم أبواقاً، وحاولوا بإخلاص إنهاض أمتهم من كبوتها، واجتهدوا في ذلك على قدر طاقتهم، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ، ولكن لا يستطيع المرء أن يشك في إخلاصهم لدينهم وأمتهم، وقد نبذوا الإلحاد، وكان خطأ المخطئ منهم فيما يمكن أن يتطرق إليه الاجتهاد، فلا يستوي هؤلاء مع من جند نفسه لتخريب عقائد أمته، وتفسيخ وحدتها، وإهدار طاقتها في تناحر لا ينتهي إلا أن يشاء الله.

إذ إنَّ المسلمين مهما كان حالهم لا يستسلمون أبداً لمثل هذه الأفكار الإلحادية، ولو سيطر أصحابها على مراكز القوة المادية في المجتمع [1]، ومن هنا يكون الذين

---

(١) لا يملك المسلم سوى أن يستمسك بالحق والخير الذي جاء به النبي محمد ﷺ وإن كان تمسكه بذلك أحياناً يجعله كالقابض على الجمر، كما ورد في الحديث الشريف: "المتمسك بسنتي عند اختلاف أمتي كالقابض على الجمر " أخرجه الحكيم الترمذي في بحر الفوائد، عن ابن مسعود، الجامع الصغير، للسيوطي، مرجع سابق، ج٦، ص ٢٦١.

قال العلامة المناوي: ذلك (لأنه إذا عارض من تمكن من الرياسة، ونفاذ قولهم عند الخلق فقد بارزهم بالمحاربة، لسعيه في هتك سترهم، وكشف عوراتهم وإبانة كذبهم وحط رئاستهم، وذلك أعظم من القبض على النار، إذ هو أعظم من محاربة الكفار، فإن الكافر قد تعاون القلب والأركان

ينشرون الفسق أو الإلحاد في المجتمع الإسلامي مطية لأعداء الإسلام ودسائسهم لتفريق المسلمين، حتى يتسنى لهم السيطرة عليهم، واستنزاف خيراتهم .

يقول الشيخ الباقوري: «إنَّ الذين حاولوا التنكر للدين في هذه البلاد، قد هبطوا إلى أدنى المنازل من قصر النظر، وضحالة التجربة، وسوء الظن بالشعب الذي زعموا الانتساب إليه، واصطنعوا الغيرة عليه وهم ماضون في استيرادهم لمبادئ ومناهج لم ينتفع بها أولئك الذين اختلقوها في بلادهم مع أنَّهم أحق بها وأهلها! وإنَّ كل ما ظفر به هؤلاء المغامرون أنَّهم شبوا نيران الأحقاد بين طوائف الشعب في مصر وبينه وبين سائر الشعوب في مختلف أرجاء أمتنا» [١].

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾[٢] .

هذان وقد أخرج البخاري بسنده في صحيحه عن حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فلت يا رسول الله: إنَّا كنَّا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم» قلت وهل بعد ذلك الشر من خير، قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه: قال: «قوم يهدون بغير هدي تعرف منهم وتنكر» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها» قلت يا رسول الله: صفهم لنا، قال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

على هلاكه، وأولئك الفساق حرمة الإيمان معهم، فيحتاج إلى التأني في أمورهم، وملاطفتهم، وأخذهم بالأخف، ومقاساة ذلك أشق من قبض الجمر، لأن الجمر يحرق اليد، وهذا يحرق القلب والكبد)، فيض القدير، للمناوي، مرجع سابق، ج٦، ص ٢٦١.

(١) الشيخ/ أحمد حسن الباقوري، العودة إلى الإيمان، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، سلسلة كتابك، ص ٣٦.

(٢) سورة النحل، الآية (٧٦).

قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» [١].

هذا وأود أن أثبت هنا ما ذكرته في مقدمة بحث حول»أحكام الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة»، ذلك أنَّ الصبر والمصابرة والثبات على المبدأ، وتحمل الأذى، والإصرار على الحق، وغير ذلك من آداب وحكمة الدعوة يمكن أن تثمر الخير حتى مع هؤلاء الواقفين في مواجهة أمتهم.

قلت: «وفي العصر الحاضر يتعرض البعض لموضوع الإمامة العظمى، خالطاً بين مذهب أهل السنة وآراء أهل الأهواء وهذا الفريق على صنفين:

صنف كاره لنظام الحكم الإسلامي﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٢]

فهو يتعمد بهذا الخلط التشويه والتشويش، ومن هؤلاء مستشرقون، ومبشرون مضللون وتلامذتهم من أبناء المسلمين.

أمَّا الصنف الثاني من فريق الخلط: فهم من الذين هالهم العدوان على الإسلام وأحكامه، من أعوان الاستعمار، ولم يكن لهذا الصنف حظ وافر من الثقافة والتربية الإسلامية الوسطية، فجنح إلى آراء تخالف ما عليه أهل السنة والجماعة إشباعاً لرغباتهم في التشديد على المارقين أو المتجاهلين لأحكام الشريعة الإسلامية، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ولو التزم الصنف الثاني، وهم في الغالب قوم طلبوا الحق فأخطأوه، لو التزم هؤلاء مناهج السنة النبوية في التربية، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة،

(١) صحيح البخاري، طبعة استانبول، مرجع سابق، ج ٨، ص ٩٣، كتاب: الفتن، باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة.
(٢) سورة الحج، من الآية (٩).

لانكشفت الغشاوة بإذن الله عن أعين الكثيرين وخاصة هؤلاء الذين يسيرون خلف كل ناعق، ويرددون أقاويل أعداء الإسلام، كما يقلد الببغاء أصوات الآخرين» [1].

هذا، وفي سياق الحديث عن دسائس الأعداء، باعتبارها سبباً من أسباب الفتنة في بلاد المسلمين: تجدر الإشارة إلى محاولات أعداء الإسلام وأذنابهم في إثارة النعرات الشعوبية، وإحياء الجاهليات الوثنية، والخلافات المذهبية.

«ومن المؤسف: أن يقوم بعض أصحاب المذاهب الإسلامية وخاصة فرق الشيعة في محيط أهل السنة والجماعة بنوع من التصرفات تشبه تصرفات المبشرين بالنصرانية في المجتمع الإسلامي، مما يحدث بلبلة لا يستفيد منها المسلم، وإنما يستفيد منها أعداء الإسلام، من دعاة الإلحاد والتضليل.

والعقل والشرع يوجبان على كل مسلم التسامي على الخلافات المذهبية، وألاَّ يُسمح للمغامرين بتفرقة صف المسلمين في الوقت الذي تجتمع فيه قوى البغي ضد الإسلام والمسلمين» [2].

هذا، ويلعب الشيعة في إحدى الدول الإسلامية التي يجهل كثير من عامة الناس في مصر، وجود الشيعة فيها وجوداً نشطاً، يلعب هؤلاء الشيعة في هذه الدولة الإسلامية دوراً خطيراً في نشر الفتنة بدعوى نشر التشيع كما دلت على ذلك بعض الوقائع التي اشتهرت في مصر منذ وقت قريب، وتعمد هؤلاء الزواج من بيئات مصرية ساذجة، والناس فيها تحسن الظن بكل ما يأتي من هذا البلد المبارك، ولا يدري هؤلاء البسطاء أنَّهم اُتخذوا واسطة للتسلل الشيعي بكل ما يحمله من مخاطر الفتنة والتشرذم لوحدة المسلمين في مصر .

---

(١) د/ عبد السلام بشر محمد سعيد، أحكام الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، مطبعة العمرانية بالجيزة، مصرن ط/ الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص ب.

(٢) المرجع السابق، ص ب.

هذا فضلاً عن النشاط الملحوظ في القاهرة لطوائف الباطنية، وخاصة طائفة (البهرة) الهندية، والتي تزعم أنَّ أجدادهم هاجروا من مصر بعد سقوط دولتهم الفاطمية الباطنية.

هذا فضلاً عن سيل الكتب المتدفق من لبنان وسورية، والتي أخرجها أصحابها من السراديب لتصبح وسيلة للبلبلة في عصر ثورة الاتصالات والطباعة، بعد أن كانت سراً متداولاً بين أصحابها، وإن كان الحق سبحانه وتعالى قد يسر للعلماء الاطلاع عليها، وكشف أباطيلها [(١)].

هذا، وأهل اليمن، وهم قوم اشتهروا بالحكمة من قديم، تعايش فيه الشوافع والزويد نموذجاً من الأخوة الإسلامية الراقية، حتى صار العالم الذي ينبغ في علوم الشريعة الإسلامية زيدياً كان أو شافعياً مرجعاً للجميع، ومهوى أفئدة كل المخلصين من طلاب العلم في اليمن ومصر وغيرها من بلاد المسلمين، كالإمام الشوكاني رحمه الله تعالى.

وقد وقف العلماء المخلصون من الزيود والشوافع موقف الدفاع عن إخوانهم ضد دسائس أعداء الإسلام من الزنادقه الذين معظم جهودهم في بث الفرقة بين أخوة العقيدة والدين.

وهذا هو العلامة عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني الشافعي، يتعرض لأحد الأحاديث الموضوعة، فيقول: «قلت:حديث: الزيدية مجوس هذه الأمة. قال شيخنا لم أره.

(١) رد علماؤنا الأبرار على جميع شبهات الباطنية ومحوا آراءهم ومقاصدهم ووسائلهم مثل حجة الإسلام: الغزالي،، في كتابه النفيس (فضائح الباطنية) والذي حاولت الباطنية الرد عليه، فجاء ردهم إثباتاً لما ذكره عنهم أبو حامد الغزالي ~ لا نفياً لما قاله، وكذلك رد عليهم غيره من العلماء، لكن المصيبة فمين يعرض عن تراث علمائنا الأثبات، ظاناً أن العلم كل العلم فيما يدر عن الغرب المعاصر، والمصيبة الكبرى بهؤلاء الذين جل همهم صد المسلمين وتنفيرهم عن تراث العلماء والذي فيه ترسانة كاملة، وذخيرة حية للدفاع عن الإسلام، وردا أكاذيب المفترين.

ولكنه عند أبي داود والطبراني وغيرهما مرفوعاً من حديث ابن عمر: [القدرية] لا الزيدية.

قلت: بل هو حديث موضوع لا تحل روايته، وحاشا الزيدية من هذه النسبة، والله تعالى أعلم»[1].

وإن كان ما يتردد من محاولات الرافضة في استمالة الزيود إلى آرائهم صحيحاً، فهو أمر خطير في بلد يرجى له وبه الخير الكثير للإسلام والمسلمين، وقد سجل له التاريخ الإسلامي أسمى أنواع الفخار وهو المشاركة في نشر الإسلام في أقاصي آسيا بالحكمة والموعظة الحسنة.

لا أظنُّ أنَّ حكماء اليمن تنطلي عليهم مداهنات قد يمارسها طوائف من المغامرين المتعصبين، قد يجاريهم فيها فئات لها مصالح خاصة وضيقة.

هذا وخطورة نشر التشيع في البلاد الإسلامية التي تنعم بروح الأخوة الإسلامية أنَّ كثيراً من الشيعة الإمامية وهم جميعاً أقلية بين المسلمين، ينظرون إلى أهل السنة والجماعة وهم معظم المسلمين نظرة قد تتساوى مع نظرتهم لليهود والنصارى، وقد تزيد عن ذلك عند متعصبي الشيعة[2]، لكنَّ عقلاء القوم يكفكفون من غلواء هؤلاء المتعصبين، ويقيمون للوحدة الإسلامية العامة وزنها اللائق بها، ولكن ما يخشى أن تذهب أصوات هؤلاء العقلاء سدى.

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني، تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، لنبان، ط/ الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ١٠٠. وانظر: حركة الزندقة في المجتمع الإسلامي قديماً وصلتها بآراء الملاحدة في العصر الحاضر، رسالة غير منشورة بكلية أصول الدين بالقاهرة، للدكتور/ عبد السلام بشر محمد سعيد.

(٢) راجع فصل (العلاقة بين التشيع والزندقة) من رسالة الدكتوراه: (حركة الزندقة في المجتمع الإسلامي قديماً وصلتها بآراء الملاحدة في العصر الحاضر)، للدكتور/ عبد السلام بشر محمد سعيد، مخطوطة بكلية أصول الدين، جامعة الأزهر بالقاهرة، ص ٩٧ وما بعدها.

والخلاصة:

أنَّ دسائس الأعداء متنوعة الأشكال والألوان، وهي أحد أهم أسباب الفتنة بين المسلمين.

وإن ألقينا اللوم على الأعداء ساعة، فإنَّ اللوم علينا نحن المسلمين المعاصرين لا يكفيه يوماً كاملاً، إذا تركنا من الحصانة التي وهبنا الله إياها عندما هدانا للإسلام.

إلا من رحم الله وعصم.

ختـــام:

أقول: ما ذكر آنفاً ليست آخر الأسباب التي تنجم عنها الفتنة إذا لم يتيقظ لها المسلمون، ولكن أقول كما قال الإمام وهو ابن حجر العسقلاني (إنَّ الفتن غالباً إنَّما تنشأ عن التبديل والإحداث)[1].

أياً كانت صورة هذا التبديل والإحداث.

فالله سبحانه وتعالى ألَّف بين قلوب القبائل، والأجناس والأعراق الشتي على هذا الدين القويم وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾[2].

وإنَّ سوء المخالفات لأصحابها، والساكتون عليها القادرون على منعها شركاء لهم، والمجتمع كالسفينة تغرق بالكل متى تم خرقها كائناً من كان الفاعل.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾[3].

---

(١) الإمام/ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج٢٧، ص ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآيات (١٠٢ ١٠٥).

(٣) سورة الأنفال، الآيتان (٢٤، ٢٥).

المـراجـــــع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الحديث وعلومه:

- بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها، للإمام/ أبي عبد الله محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي، دار الجيل، بيروت، لبنان،ط/ الثالثة، بدون تاريخ.

- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، للإمام/ عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤٠١هـ ١٩٨٢م.

- الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، للإمام/ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

- سنن الترمذي، للإمام/ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

- سنن ابن ماجه، للإمام/ ابن ماجه الحافظ أبي عبد الله محمد يزيد القزويني، طبعة استانبول، تركيا، ضمن مجموعة الكتب الستة.

- سنن أبي داود، للإمام/ أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني، راجعه وضبط أحاديثه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، بدون تاريخ.

- شرح النووي على صحيح مسلم، للإمام/ محيي الدين أبي زكريا يحيي بن شرف النووي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، بدون تاريخ .

- صحيح البخاري (بحاشية السندي)، للإمام/ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط/ الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

- صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور، باكستان، ١٤٠١هـ ١٩٨٩١م.

- صحيح البخاري بشرح فتح الباري، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، ـ ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

- صحيح الترمذي (سنن الترمذي) بشرح عارضة الأحوذي، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.

- صحيح مسلم، للإمام/ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لنبان، بدون تاريخ.

- صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة، مصر، بدون تاريخ .

- صحيح مسلم بشرح النووي، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام/ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

- فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، للعلامة: محمد، المشتهر بعبد الرءوف المناوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن أبي شيبة الكوفي العبسي، تحقيق: مختار أحمد الندوي، الدار السلفية، بومباي، الهند، ط/ الأولى، ١٤٠٢هـ ١٩٨٩١م .

- المسند، للإمام/ أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، دار الفكر العربي بمصر، بدون تاريخ.

- المُصَنَّف، للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي (جوهانسبرج، جنوب أفريقيا كراتشي، باكستان كوجارات، الهند، ط/ الثانية، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

- الموطأ، للإمام/ مالك بن أنس، ضمن موسوعة السنة، دار الدعوة ودار سحنون بتونس، ط/ الثانية، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

- نوادر الأصول في أحاديث الرسول، للإمام/ محمد بن علي بن الحسن أبي عبد الله الحكيم الترمذي، تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

ثالثاً: التفســير:

- تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، للإمام/ فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسين بن علي التيمي البكري الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط/ الثالثة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

رابعاً: الفقه وأصول الفقه وقواعد الأحكام:

- الحاوي الكبير، للإمام/ أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: د/ محمود سطوحي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

- الرسالة، للإمام/ محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، ط/ الأولى، ١٣٥٨هـ ١٩٤٠م.

- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، للإمام/ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، ط/ الأولى، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م، دار الفكر، بيروت، لبنان، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة .

- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للإمام/ أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

- مجموع فتاوى ابن تيمية، للإمام/ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تصوير الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ، دار الرسالة، بيروت.

- المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، للإمام/ أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الجد)، تحقيق: د/ محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

خامساً: الدعوة والعقيدة والأخلاق، واللغة العربية، والتاريخ وعلم النفس والاجتماع:

- أحكام الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، د/ عبد السلام بشر محمد سعيد، مطبعة العمرانية، الجيزة، مصر، ط/ الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٧٧م.

- إحياء علوم الدين، للإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، بدون تاريخ.

- الاعتصام، للإمام/ أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، بدون تاريخ.

- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، للإمام/ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩١م.

- البداية والنهاية، للإمام/ عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن كثير، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، مصورة عن الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ ١٩٣٣م.

- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، للإمام/ أبي المظفر الإسفراييني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

- حركة الزندقه في المجتمع الإسلامي قديماً وصلتها بآراء الملاحدة في العصر الحاضر، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة .

- شرح العقيدة الطحاوية، للقاضي/ علي بن علي بن محمد بن أبي الغز الدمشقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

- العودة إلى الإيمان، للشيخ/ أحمد حسن الباقوري، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، سلسلة كتابك.

- كتاب سبيل السعادة في فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الإسلامية، للشيخ/ يوسف أحمد نصر الدجوي، مطبعة النهضة الأدبية بمصر، ١٣٣٢هـ ١٩١٤م .

- المدخل إلى علم الاجتماع السياسي، د/ إسماعيل علي سعد، دار النهضة، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٩٨٩م.

- المعارف، لابن قتيبه أبي محمد عبد الله بن مسلم، دار المعارف بمصر، ط/ الرابعة، ١٩٨٨م.

- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

- موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، للإمام الدكتور/ عبد الحليم محمود، مطابع دار الشعب، القاهرة، مصر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.